

1985



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

النقد السياسي للسلطة الحاكمة في المدونة الوسيطية للغرب الإسلامي دولة الموحدين نموذجا

مذكرة مكّلة لمتطلبات نيل شهادة الماستر

تخصص: تاريخ الغرب الإسلامي

إشراف الأستاذ:

لخضر بولطيف

إعداد الطالب:

محمد مهية بن يونس

السنة الجامعية: 1441-1442هـ/2019-2020م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَعَزَّ الذِّكْرِ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلِمَ لِسَانُ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَزْمَ مُنْكَرٍ فَعَلُوا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

المائدة: 78-79

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَكَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ".

صحيح مسلم.

الإهداء :

إلى أبي وأمي

وإلى الأُباة من أمتي

إلى أختي برابطة الدم وإخوتي برابطة الدين

إلى الأشداء الرحماء

إلى كل سهل قريب هيّن ليّن

الشكر والعرفان:

للخالق الهادي الموفقّ المُستعان

وللأستاذ المشرف الشغوف المتفهمّ العالي المتواضع

ولأساتذة فضلاء من أول إلى آخر يوم

رفقوا وأغدقوا خلقا وعلما

وإلى الزملاء الكرماء ذوي الفضل العلمي

طوال المسيرة والمذكرة،

بن سالم ولغويني وحديبي وبن حمودة وعاشور ويرمش،

ومن خارج ديار التاريخ بديار... وآخرين كثيرين

جزاكم ذو الفضل الأكبر خيرا جزاء.

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الحكيم العلي الصمد، المنعم كثير الخير المستحق لكل حمد وثناء، المحمود عند كل ابتداء وانتهاء.

1- أهمية الموضوع وإشكالياته:

خلق البارئ عز وجل في جسم الإنسان آليات تصونه وتعين نموه إذا سلم، وأخرى تصلحه وتجبره إذا أصابه سقم، وكذلك الأمم، على امتداد تواريخها ترصد فيها ظواهر وآليات للشحن والإينماء والإصلاح، تزيد قوتها وتقوي مناعتها وتؤخر شيخوختها، ومنها النقد والتفكير النقدي كظاهرة تاريخية بشرية بالعموم، وفي مجال سياسة الناس والدول بالخصوص، الذي وجوده في عصر ما هو دلالة حياة في جسم المجتمع والدولة، وصحة في فكر أهلها.

قد لا يجد الناظر في تاريخ الغرب الإسلامي، وطالب تفحص المدونة التاريخية الوسيطية الخاصة بها، نموذجاً أنسب من الفترة الموحدية، التي شهدت أحداثاً كثيرة كثيفة، وشهدت توسعاً واتحاداً في هذه الرقعة، لم يتوفر في عصر بعده، إذ يعد هذا الإطار التاريخي حقلاً مناسباً للنظر في الظواهر الفكرية والتاريخية، لكثرة تجاذباته ووفرة معطياته، مقارنة بغيره من تواريخ العصر الوسيط.

ولا أذيع سرا أن ما سبق من وزن لهذه الظاهرة الفكرية -وهو أكثر مما ذكرت- الذي أعتقد بأهميتها ومركزيتها عن اقتناع، وثناء هذه الفترة الوسيطية دفع بي دون تردد وتمهل إلى الظفر بهذا الموضوع، والسعي فيه دون هوادة، برجاه أن يكون إبرازاً لإعمال النقد فيما مضى، ونقداً للنقد، لإدراك وتدارك ما تخلله، وتشجيعاً لمن سيأتي، عسى أن يكون إحياءً لسنة حسنة، وحسنة جارية.

وعلى أهمية الظاهرة النقدية وأهمية الفترة الموحدية، وثقلها في المدونة التاريخية الوسيطة، فإنه تتبدى فجوة وبقعة مظلمة سائحة للبحث خلالها وإنارتها، ألا وهي عن مدى ممارسة النقد السياسي خلال عملية التأريخ للفترة الموحدية، ومدى الإحسان والإجادة فيه، أم قد غلبت على الأقدام العملية التدوينية للتاريخ؟ وإن همت به فهل غلبت عليها نوازع نفسها، ومناهل فكرها، ومحيطات عصرها ومصرها؟ وإن أعجز تجردها الكامل، فإن النظر في نقدها يكون موزونا بمدى مقاربة الإنصاف، وما نقد نقدها، وأين كانت ذرواته، وأين كانت فجواته وما هي مسبباته؟ وفي الطرف الآخر من المعادلة يبرز التساؤل عن مدى وكيفية تعاطي السلطة السياسية مع النقد السياسي وأثرها عليه؟

2- الدراسات السابقة:

إن مما يسهل طريق الباحث السائر، إيجاد آثار لمن مضوا قبله على الدرب نفسه يسترشد على إثرها، وإن لم يكن هذا الدرب معبداً، ولم يكن مسيرهم إلى الوجهة نفسها تحديداً، فإن ممن كان قد سلك مسلكاً مشابهاً لدراسات قليلة، إلا أن توجيهها للبوصلية الأولية كان نافعا، وإن كانت شحيحة التوفر؛ كرسالة فاطمة محمود منصور صالح في نقد مؤرخي القرن التاسع الهجري للسلطة الحاكمة في العصر المملوكي، وهي رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، نوقشت بجامعة المنصورة بمصر، ورسالة هناء مصطفى نافع أبو الرب في النقد السياسي والاجتماعي عند شعراء الذخيرة، وهي رسالة ماجستير -أيضا- في اللغة العربية، نوقشت بجامعة اليرموك في الأردن، وإن يكن ما توفر منهما لم يعد مقدمة وفهرسا، فإنه كان كافيا -على قلته- بالنسبة لي لاسترشاد أولي في غرة الدرب.

3- المنهج والرؤية:

لخوض غمار الموضوع ارتأيت احتذاء منهج مركب لبلوغ المرام من هذا البحث، وحل الإشكالات، ودفع الغمام، مما عقلته طوال فترة الدراسة الجامعية من مناهج وأدوات عملت على توظيفها، مع توخي حفظ مبادئ قبلية وأخرى تبنيتها، منها التقدم من العام إلى الخاص، والإحاطة بحواشي الموضوع قبل الخوض في قلبه، وإقامة الأساس الصلب قبل البناء، والتحقق من المقدمات قبل الأخذ بالنتائج، والحفاظ على التسلسل التاريخي قدر الإمكان دون تزمت.

ولأن الموضوع يتعلق ببحث ظاهرة داخل المدونة التاريخية الوسيطية، فإني تمهلت قبل المبادرة إليها، بالبحث عن أصحاب أقلامها قبل البحث فيها، إذ تعاملت معها كمنتج بشري، لإدراك ما فيه وقيمته، لا بد من معرفة صانعيه، ثم استقراء المادة في هذا المنتج -المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي- استقراءً كاملاً شاملاً، ووجد ما فيه من نقد، والنظر فيه وتصنيفه على تراتيب شتى، موضوعية وزمانية وأخرى، مما سهّل ما لحق من تخطيط للتحليل، وتعيين كنوزه الخفية.

وقد كان كل هذا في إطار المنهج التاريخي، وما يضم من أدوات تحليلية، ووصفية، مع سلاسة في التعامل، لمقاربة الموضوع من أفضل زواياه، مع التوسع إلى حدود اختصاصات أخرى مساعدة، على صلة بجوانب من البحث، كاللغة، والاجتماع، والنفس، والعلوم السياسية، التي كانت أقربها لموضوع البحث.

وضمن الرؤية الخاصة ألزمت نفسي بمبادئ عامة، أولها إخلاص النية، واتباع ما ينتج من البحث لا توجيهه، وأخرى خاصة باللغة أين حاولت قدر الإمكان الاختزال والإقلال، واستخدام ألفاظ عربية خالصة لا متقكرة، والكتابة بلغة العصر المدروس قدر الإمكان، واستخدام بعض المحسنات البديعية، لعرض أجمل للبحث، وقراءة أكثر

سلالة، وسط تراص الأفكار، لا لغرض البهرجة والتفخيم، وألّزمت نفسي أيضا منذ بداية البحث إذا ما وظفت حديثا، كان صحيحا فقط وإلا فلا، إلا في موضع واحد للاستشهاد اللغوي، وكما حاولت الكتابة بلغة العصر المدروس، عمدت إلى الكتابة بتقويمه الهجري، الذي أرى مركزيته بالنسبة لي كمسلم، وبالنسبة للمدونة الوسيطية، رغم امتلاك الإمكان للتحويل إلى تقويمات أخرى، إلا أنه كان خيارا شخصيا وعلميا، أتمنى أن يحترم رفقة المبادئ الأخرى التي ألّزمت بها نفسي في هذا البحث دون تجاوز فيما أرى.

4- هيكل الموضوع:

يمكن رؤية ثمرة ما اعتمده من رؤية ومنهج لهذا العمل ماثلا في هيكل الموضوع، الذي افتتحته بفصل تمهيدي، حاولت فيه ضبط عقل أساسيات الخوض في بحث النقد، حتى لا ينفطر عقده فيما يلحق من عرض وتحليل، سواء لي كباحث فيه أو لمتلق قارئًا متخصصًا أم ناقدًا متبصرًا، ثم فصل أول لبناء قاعدة البحث بعد بناء أساسها، احتوى بحث المنابع والخلفيات النقدية، ثم فصل ثان به يقوم البحث وفيه استعرض لُبه، وظهرت معالم النقد فيه، وكانت قمة البحث في قمته وآخر بنائه؛ فصله الثالث، الذي حاولت نقد النقد فيه، وإظهار ما بدا من أنماط وظواهر فيه، وترجيح وتحليل لأسباب ما كان فيه.

5- مناهل البحث:

كانت مصادر البحث من أيسر الخطوات فيه عامة، إذ هي الموضوعات تحت المجهر منذ بدايته، وهي المقصودة بالدراسة، وما كان علي إلا حصرها في الفترة المتخذة نموذجًا، وعملت على التنوع في المؤلفات المختارة، وإدراج أمهات التاريخ الموحد، وأمهات المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي.

وأول الأنواع، كتب التاريخ العام، كالبيان المغرب لابن عذاري، والمعجب للمراكشي، والعبر لابن خلدون، والمغرب لليسع -أي ما بقي منه-، والاكتفاء لابن الكردبوس، وإعمال الأعلام لابن الخطيب، وهي التي تناولت التاريخ بنظرة شاملة غير محصورة في الفترة الموحدية، ككتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة، وأخبار المهدي للبيذق، ونظم الجمان لابن القطان، وأخرى عن دول أعقت الموحدين كالفارسية لابن قنفذ، وتاريخ الدولتين للزركشي، والذخيرة السنوية لابن أبي زرع، وضممت أنواعا أخرى شملت التاريخ الموحي أيضا، ككتب تواريخ المدن كروض القرطاس لابن أبي زرع، والروض الهتون لابن غازي، وأضفت إليها ألوانا أخرى كلون الرجز التاريخي في نظم ابن شبرين لكتاب ميزان العمل، والإحاطة لابن الخطيب، في لون التراجم، وتاريخ المدن أيضا.

وقد كانت هذه المصادر في مجموعها توليفة متكاملة، للنظر في التاريخ الموحي، والبحث فيما ورد فيها، مما يهم الموضوع المطروح، فلم يُخَيَّب أي منها مهما صغر حجمه، مع تباين حجم وقيمة ما رصد فيها بالطبع.

ولا يستغني الباحث عن المراجع، لأجل فحص الأنظار وامتحانها، بعد تقصي الأخبار واستيعابها، ومن ذلك كتاب التفكير النقدي عند العرب للعاكوب، ورسالتي المدقة في وسائل محاسبة الحاكم، وشايبي في الفكر السياسي الإسلامي في العصر الوسيط، وقد أنارت كل منها بقعة على درب التاريخ السياسي في العصر الوسيط، ونبهت لأمر ذات قيمة.

الفصل التمهيدي:

مداخل عامة إلى النقد السياسي للسلطة الموحدية.

أولاً: مصطلحات ومفاهيم نقدية وسياسة.

ثانياً: مداخل إلى الموحدين وأساليب نقدهم.

أولاً: مصطلحات ومفاهيم نقدية وسياسية.

1- النقد لغة:

لا مبالغة إن قيل إن فهم اللغة هو المدخل الأول لفهم أية ظاهرة بشرية، وفهم المبنى أسبق لفهم المعنى¹، ونحن وإن كانت دراستنا هاهنا تاريخية في المقام الأول إلا أن للكلمة تاريخاً، وخاصة إن كانت اللغة غنية الألفاظ والمعاني والتاريخ، فلا مفر من إتباع الأثر الذي تكون بمعرفة أوله إصابة النظر في إدراك الظاهرة وإحسان ضبط الكلام فيها وبلوغ الدقة والعلمية قدر المستطاع، واللفظ المراد أولاً هنا النقد.

والنقد عند ابن منظور هو خلاف النسيئة والنقد والتتقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها، وبهذا المعنى يكون النقد هو التمييز بين صالحها وزائفها كلها أو الجزء المزيف المضاف إليها، ويذكر الفعل بصيغتين انتقادها وتنتقدها ناقلاً عن الليث² "النقد تمييز الدراهم وإعطائها إنساناً، وأخذها الانتقاد، والنقد مصدر نقدته دراهمه. ونقدته الدراهم ونقدت له الدراهم أي أعطيته فانتقدها أي قبضها. ونقدت الدراهم وانتقدتها إذا أخرجت منها الزيف" كما يورد فعل النقد خارج إطار المعاملات المالية "وناقدت فلانا إذا ناقشته في الأمر"³.

¹ وهي قضية -أي المعنى والمبنى- ناقشها السالفون في ميادين عدة كان الأمر في الشعر أو النثر أو الأثر ومن المتحدثين فيها ومن طرحوا بعض الاستثناءات الغزالي: "وقد يكون المعنى أسبق إلى الفهم من اللفظ وقد يكون مساوياً له وقد يتراخى عنه قدر التأمل القليل من فهم البصير"، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق: حمد الكبيسي، ط1، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971م، ص83.

² وهو الليث بن المظفر الكناني حفيد القائد والوالي الأموي نصر بن سيار وهو صاحب الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أكمل عنه كتاب العين بعد موته وكان مما أكمل عنه كلمة النقد المنقولة هنا. أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، معجم الأديباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ج5، ص2253 و2254.

³ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994م، ج3، ص425.

يضيف ابن منظور في معاني النقد النقر ونقد الشيء ينقده نقدا إذا نقره بإصبعه كما تنقر الجوزة، وفي معنى مقارب لهذا قال نقد الطائر الحب ينقده إذا كان يلقطه واحدا واحدا وهو مثل النقر¹، وبهذا يكون النقد مشتقاً على معنيي الضرب في الشيء والتمييز فيه، ويرد النقد بمعانٍ سلبية لدى ابن منظور لكنه بتحريك فالنقدُ السفلى من الناس، والنقدُ جنس من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه تكون بالبحرين².

أما ابن فارس وهو المعروف بجمعه ممن سبقوه ونقده لما كتبه الرائد في النقد اللغوي³ قد عرف النقد إذ قال: "النون والقاف والذال أصل صحيح يدل على إبراز شيء وبروزه" فيكون هنا ظهور حقيقة الشيء ويسوق في نفس المعنى "النقد في الحافر وهو تقشره، حافر نقد متقشر، والنقد في الضرس تكسره، وذلك يكون بتكشف ليطه عنه" والظاهر عنده اتفاق معنى النقد على الانكشاف وإبراز حقيقة المنتقد ويحتمل أيضاً معنى انتقاص بعض ما فيه كما في قشرة الحافر وليطة الضرس، وهو الأمر نفسه في الدراهم التي لم يغفلها ابن فارس هي الأخرى إذ قال: "نقد الدرهم وذلك أن يكشف عن حاله في جودته أو غير ذلك" ولا تزال معاني النقد متقاربة لديه فيختتمها بالمعنى الذي جرى على الألسن "وتقول العرب ما زال فلان ينقد الشيء، إذا لم يزل ينظر إليه"⁴.

وعلى حسب ما أورده ابن فارس من معاني متقاربة للنقد يمكن الجمع بينها في النظر في الشيء وميز ما فيه، ولا يختلف اللغوي اللاحق بعد ابن فارس وابن منظور

¹المصدر نفسه، ص226.

²نفسه.

³محمود عبد الله جفال، "منهج أحمد بن فارس في النقد اللغوي في معجم مقاييس اللغة"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، ع67، جويلية 2004م، ص93-121.

⁴أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م، ج5، ص375.

مجد الدين الفيروزآبادي في تعريفه للنقد إذ جمع بين تعريف الاثنين ككونه خلاف النسبية وتمييز الدراهم وتكسر الضرس وتقرش الحافر والنظر والنقد من الغنم، والنقر عند الإنسان والطائر، وناقده بمعنى ناقشه، فيكون الفيروزآبادي ناقلا جامعا ومؤكدا على ما نقله سابقاه في أن النقد لغويا لا يخرج عن هذه المعاني ولم تكن إضافاته سوى بكلمات تشترك في الجذر نقد¹.

ولا يسعنا النظر في التعريف اللغوي للفظ ما في اللغة العربية دون النظر في كيفية وروده على لسان أفصح العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤتى جوامع الكلم، وفيما يصح من الأحاديث النبوية المتضمنة لفظ النقد فإن قصارى ما وجدته هو ما في صحيح مسلم في باب فضل إنظار المعسر: "عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن رجلا مات، فدخل الجنة، فقيل له: ما كنت تعمل؟ قال: فأما ذكر وإما ذكر، فقال: إني كنت أبايع الناس، فكنت أنظر المعسر، وأتجوز في السكة، أو في النقد، فغفر له"²، والنقد هنا في سياق المعاملات المالية موافق للتعريفات اللغوية.

أما في أقرب الأحاديث إلى النقد كما هو في سياق البحث فهو حديث "انقدوا أمتكم نقد الدينار"³ وعلى عدم صحته وضعفه فإن الحديث يظهر لنا معنى ماليا كما في التعريفات اللغوية ومعنى آخر سياسيا، والحديث هو إن لم يصح يظهر لنا تداوله في القرن الثامن لدى ابن عبد الهادي حضور هذا المعنى آنذاك على أقل تقدير.

¹ أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م، ص332.

² أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1991م، ج3، ص1195.

³ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، مجموع رسائل الحافظ ابن عبد الهادي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، 2006م، ص94.

2- النقد اصطلاحاً:

مما جرى على الألسن أن اللغة كائن حي ينشأ وينمو ويتطور ويتبدل وكذلك الحال مع الكلمات فكثيراً ما يكون لها تعريف لغوي مضبوط يتغير بتغير تداوله عند الناس، وهو ما يسمى التغير الدلالي ومن أمثلة ذلك لفظة الإسكاف والإسكافي التي كانت تطلق على كل صانع ثم تطور معناها الدلالي وتم الاصطلاح على تخصيصها لصانع الأحذية¹.

وقد وقع لفظ النقد شيء مماثل ولكنه بدرجة أقل، فإننا نلاحظ تطوراً في المعنى الدلالي له ومن وقت مبكر، فمن النظر في الشيء وفحص الدراهم وتقرش الحافر وبروزه وما إلى ذلك، إلى نقد الكلام أي مناقشته كما أسلفنا وإلى معنى عام وهو تقييم الشيء والميز بين حسنه وسيئه، وأمسى تعبيراً عن موقفٍ والقدرة على التمييز يمر عبر خطوات الاستقراء ثم التحليل فالحكم على المنتقد، وقد يتأنى على هيئة ملكة عفوية تطوى من خلالها تلك الخطوات إلى الحكم مباشرة².

كما يشيع لفظ النقد في كثير من الأحيان بجانبه القدحي المظهر للمساوئ وقد يقابله لفظ التقريظ وهو مدح الشيء والثناء عليه، مأخوذ من قرظ الجلد دبغه بالقرظ، وقرظه بالغ في دبغه، وسموا المدح تقريظ الآن المقرظ يحسن ويزين صاحبه كما يحسن القارظ الأديم³، إلا أنه ورغم تقاطعه أحياناً مع النقد الذي يميز الحسن فإنه لا

¹ ابن فارس، المصدر السابق، ج3، ص68.

² إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص14.

³ أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج2، ص70.

يطابقه فالنقد قائم على أسس ومعايير تسنده في عملية التقييم، والمقرظ هو المادح لغرض المدح التزيين بينما الناقد من يميز القبيح من المليح¹ معا.

ربما قد يختلف قليلا المعنى الاصطلاحي للنقد بحسب اختلاف الفن والمجال الموظف فيه إلا أن الآليات والغاية واحدة، فمن أشهر مواضعه واستعمالاته، المجال الأدبي في نقد الشعر، حيث تظهر هذه المفردة بهذا المعنى الاصطلاحي في وقت مبكر وارتبطت عملية النقد بهذا المجال ويمارسها من يسميهم الجاحظ جهاذة الألفاظ ونقاد المعاني فسمى الناقد الخبير جهبذاً، وظهر نقاد كثيرون للشعر لعل من أشهرهم ابن رشيقي المسيلي صاحب كتاب العمدة على أن النقد الشعري قديم منذ العصر الجاهلي².

على غرار أهل اللغة والشعر فقد عرف أهل الديانة والشرع النقد هم أيضا ففي المحدثين نجد نقد المتن ونقد الأسانيد ونقد الرواة فعرفوا النقد بنوعيه وسموه الجرح والتعديل وأفرد له علم خاص قائم بذاته، وعرف المصنفون في المذاهب والفرق النقد للفرق والعقائد التي عرضوها في مصنفاتهم ولمع نجم منجنيق الغرب ابن حزم الظاهري في هذا المجال وكانت له يد السبق فيه فطال سيف نقده فرق عدة من أهل الإسلام وأهل الكتاب³.

ويمتد النقد إلى لب هذا التخصص في المجال التاريخي الذي لا بد ومن ممارسته فيه، في الأخبار كان أم في الأنظار، والنقد صفة ملازمة للمؤرخ اللبيب الفطن لا تنفك عنه ما مد بصره في كتاب أو ما حمل قلمه، والغاية منه فيه تمييز

¹ والمليح من فصيح العامية بمعنى الحسن.

² عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب، ط1، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1997م، ص18.

³ شعيب خنوف، "النقد التاريخي عند ابن حزم"، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، كنوز الحكمة، الجزائر، م1، ع2، جوان 2013م، ص73.

الصلب من الأخبار والرديء منها، وقد يرتقي المؤرخ في البحث في القضايا التي مرت بالأمم المؤرخ لها كما هو الحال في رعى هذا البحث، ويبرز المسعودي كأحد رواد هذا النوع من النقد بنقده المؤرخين والمصادر والدوافع نحو الكذب وأسباب الخطأ وأهمية المشاهدة، فصنف المؤرخين بين مجيد ومقصر وأعمل في النصوص المقابلة وأظهر حسا تاريخيا فريدا¹.

بالإمكان القول أن النقد قد عم كل مجال شملته صفة العلمية وظهرت مدارس نقدية كثيرة الفروع، وصار النقد عنوانا لكل عملية تحسين وتطوير، كيف لا والنقد في غايته إذا ميز القبيح أراد تصويبه وتحسينه فأول إصلاح للفشل نقده، وإذا ميز المليح أراد تثبيته والتثبيته عليه بل وشحذه وإبلاغه القرب من الكمال ما استطاع، وما أخطأ الجاحظ إذ سمى الناقد جهبذا، فإنه لا يتأتى بصفته الكاملة لكل قاصد له، فالنقد قد يتخلله إجحاف أو تقريظ تبعا لقدرات الناقد ونوازع نفسه وحال زمنه وعيشه، فالنقد عملية إدراكية تسمو بسمو عقل الناقد وحسه النقدي.

¹صائب عبد الحميد، علم التاريخ ومناهج المؤرخين، ط2، مركز القدير، بيروت، 2008م، ص202.

3- النقد السياسي:

على تعريفنا النقد أنفا لغة واصطلاحا والإشارة لأهمية هذه الظاهرة البشرية ودخولها على كل مجال حقيرا كان أم عظيما، ومن عظام أمور الناس أمر حكمهم وسياستهم التي دخلها النقد، وأولد هذا التمازج النقد السياسي المكون من شقين، النقد الذي عُلم لدينا والسياسة.

ولفظ السياسة في العصر الوسيط هو الآخر شهد تطورا وتغيرا في الاصطلاح إذ تفرع في عصرنا إلى حد لا يدرك في صفحات، والمقصود بالسياسة الوسيطة معنى تدبير أمور الأمة بما يحقق مصلحتها في الدنيا والآخرة، وتأتي أيضا بمعنى القيادة والرياسة وأحيانا بمعنى الترويض كما في السائس، وألف فيها عدد كثير من المؤلفات الوسيطة في السياسة الشرعية والأحكام السلطانية، فكانت جلها تدور حول ثلاثة محاور، اقتضاء وجود سائس وهو الحاكم خليفة كان أم ملكا أم أميرا أو واليا، واقتضاء وجود مسوس وهم الرعية المحكومون، وشيء تناس به الأمة وهي النظم والأحكام التي تدبر بها شؤون المحكومين¹.

جادل البغدادي في عصره أن لفظ السياسة لفظ عربي أصيل وبين أن قال: "ونسوس من ساس زيد الأمر يسوسه سياسة، دبره وقام بأمره، والسياسة لفظة عربية خالصة زعم بعضهم أنها معرب سه يسا"²، وذلك بعد أن شاعت بعض القصص التي ربطت المصطلح بقصة لجنكيز خان "وهذا شيء لا أصل له فإنها لفظة عربية

¹ ياسين شايبي، "الفكر السياسي الإسلامي في العصر الوسيط في كتابات الآداب السلطانية المغربية والأندلسية (خلال القرنين 5 و8هـ/11 و14م)"، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2018م، ص52.

² عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ج7، ص64.

متصرفة تكلمت بها العرب قبل أن يخلق جنكزخان¹ واستدل بأصالتها ببيت حرقة بنت النعمان بن المنذر الذي قالته لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهي سلية سلالة المناذرة².

وبذلك يكون النقد في الأمور المتعلقة بتدبير شؤون الأمة والقيام بأمرها، كان الأمر في السائس الخليفة أو السلطان أو الملك أو الحاكم أو الوالي وما دناه، أم في النظم والأحكام وما يساس به الناس، أو أي من أفعال سياسة البلاد والعباد وما يكون من تمييز حسنها وقبيحها وتقييم الأفعال والنظم والمنجزات وقد يكون ذلك منطلقاً من معايير يعتقد بها الناقد في السياسة يحكمها في نقده السياسي.

ولا بأس من الإشارة لما أضحى عليه النقد السياسي في العصر المعاصر وذلك ضمن ما اشتهرت به مدرسة فرانكفورت وهي نتاج عمل مجموعة من المثقفين في أواخر عشرينات القرن الماضي كان من أهم ممثليها ماكس هوركايمر وأدورنو وهربرت ماركوزه، وارتكزت على النفي الراديكالي لما هو موجود والتعامل معه بمسلكية نقدية³، غير أن هذا لا يهيم مصطلح النقد السياسي في إطار البحث وعصره، وما يهيمه هو المصطلح المدموج بين اللفظين في الفترة الوسيطية.

¹ المصدر نفسه، ص 6.

² وتقول حرقة في البيت: "فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نُنْتَصِفُ". البغدادي، المصدر السابق، ص 64.

³ مجموعة من المؤلفين، أطلس العلوم السياسية dtv، ترجمة: سامي أبو يحيى، ط1، المكتبة الشرقية، بيروت، 2012م، ص 73.

ثانياً: مداخل إلى الموحدين وأساليب نقدهم.

1- السلطة الموحدية:

على نسق التعريف والتوضيح فيما يخص مصطلحات البحث وجب ذكر بعض ما لا يسع القارئ في الموضوع جهله، وحتى لا يلتبس أمر خلال الخوض في النقد السياسي لهذه السلطة المتخذة نموذجاً للدراسة ويتسنى الفهم الأدق لطبيعة العصر والنقد والناقد والمنتقد.

والسلطة الموحدية¹ هي نتيجة لحركة قامت مطلع العقد الثاني من القرن الهجري السادس على يد محمد ابن تومرت وجماعة من أصحابه ومن بايعه من القبائل ذات العصبية، وهو من جبل إيجليز بسوس المغرب الأقصى²، إذ ادعى المهدوية وأوصل نسبه بالنسب العلوي القرشي³، وبدأ حركته بعد عودته من رحلته إلى المشرق التي بدأت من قرطبة إلى مصر فمكة فبغداد⁴ ثم عاد باديا حملته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإسكندرية ثم إفريقية التي كان يحكمها الزيرون وكانت له حوادث معهم ثم رحيله إلى المغرب الأوسط وعاصمته بجاية الناصرية حاضرة الدولة الحمادية واستمر في منهجه ولقي فيها أهم أتباعه عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي وأمروا بالخروج منها على ما لقيه أهلها منهم من شدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما حدث في المهدية⁵.

¹وقد عمدت على الإحالة في هذا المطلب إلى المراجع لا المصادر وذلك لأنها أكثر اختصاراً وأقل تعقيداً وتفصيلاً وأيسر لغة على القارئ أما المصادر فإنها لب البحث.

²عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ط2، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999م، ص683.

³المرجع نفسه، ص684.

⁴انظر الملحق 1.

⁵عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص685-688.

وتجاه ما لاقاه ابن تومرت قرر ومن كسب صحبتهم من خلال رحلته الاتجاه غربا والظاهر أنه قد كانت له نية واضحة من بادئ الأمر من خلال ما عدل به رأي عبد المؤمن بن علي من الاتجاه مشرقا لطلب العلم¹ فوجهه ومن معه وتوجه نحو المغرب الأقصى دار حكم المرابطين سنة 514 للهجرة واستمر على دأبه في الجهر بالنهي عن المنكر موجهها حاسة النقد نحو السلطة المرابطية² التي لم يجاهرها بالعداوة المباشرة أول الأمر وهي الأخرى بدأت معه باللين والحجة بالحجة وعملت على مناظرته إلا أنه كان مجيدا فيها ظاهرا عليهم كما تذكر المصادر الموحدية، فأشير على السلطان المرابطي بسجنه إلا أنه كان واسع البال رافضا لذلك³.

ورغم عدم سجنه فإنه ضيق على ابن تومرت وبدأت بوادر ثورته تظهر التي انطلقت سنة 515 للهجرة مختارا من بلدة تيمنل الحصينة وجبلها مقرا لها بدأ بتحصيل الأتباع والأحلاف من القبائل المجاورة لحشدتها ضد الدولة المرابطية⁴، وكان ابن تومرت قد وثق هذه الأحلاف ووثق ولاء أتباعه بعقيدة وضعها ونشرها بينهم، فيها من التعلق به لدرجة العصمة وذلك بعد إعلانه أنه المهدي، وفيها من العداء الشديد للمرابطين لدرجة التكفير ووصمهم بالمجسمين وألفاظ أخرى، وكان من مؤلفاته المرشدة⁵، التي يمكن اعتبارها ككتابي الإعلان الشيوعي ورأس المال لماركس اللذان ألهما الثورات الشيوعية في القرن الماضي، وبمذهب الوصولية فإن لابن تومرت نكاء

¹ نفسه، ص 689.

² وذلك أنه قد عمد على التقرير علنا بأخت السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين في مراكش وهي في ركب من خدمها. علي محمد الصلابي، نفحات من التاريخ الإسلامي دولة الموحدين، دار البيارق للنشر، عمان، 1998م، ص 26.

³ المرجع نفسه، ص 28، 29.

⁴ نفسه، ص 33، 34.

⁵ نفسه، ص 57.

ملحوظا في حشد الأتباع واستعداد الأعداء إذ استطاع في وقت وجيز حشد عدد كبير وهز أركان الإمبراطورية المرابطية الممتدة على قارتين.

لكن ابن تومرت ما واصلت ثورته نجاحاتها رغم الهزات حتى واثاه أجله سنة 524 للهجرة وأخفي نبأ وفاته حتى سنة 527 التي أعلن فيها رسميا عن ذلك وكان قد بويع أول خلفائه عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي الذي سيكون جد كل السلاطين وأبا للسلالة الموحدية، وكانت بيعته بفضل أشياخ من الموحدين من أصحاب ابن تومرت بعد أن كان قد وصى به قبل وفاته ولمكانته عنده¹.

وكان عبد المؤمن أهلا لما رشحه إليه ابن تومرت وأشياخ الموحدين فرأى بنفسه عن الزلل والهمل واستطاع أن يسقط دولة المرابطين بحملاته العسكرية وفتوح في جسمها شرقا وغربا، فكان له دخول تلمسان ووهران سنة 539 للهجرة التي قتل بها أمير المرابطين²، ليدخل فاس ثم عاصمة المرابطين مراكش سنة 541 هجرية ليكون بذلك السقوط العام لدولة المرابطين³ وتنتقل مراكش إلى حكم بني عبد المؤمن⁴.

وما طال الزمان حتى تمكن عبد المؤمن من وراثة ما حازه المرابطون في الأندلس، لا وبل قد زاد على ذلك بأن افتك المغربين الأوسط والأدنى من دول صنهاجة وطرد النورمان من المهديّة فكان له من حكم المغرب كله ما لم يكن لملك قبله منذ عهد بني أمية، وكانت سنة الأخماس 555 هجرية سنة مجده وعلو كعبه،

¹ عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص694، 695.

² نفسه، ص697.

³ على أنه قد بقي للمرابطين فلول كإمارة بني عانية التي سيطرت على جزيرة ميورقة وأجزاء من المغرب الأوسط لمدة طويلة.

⁴ عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص700.

وبدأ عبد المؤمن بنوكاء من التمهيد لحكم سلالته من بعده إذ ولي بعض أبنائه على الأقطار المضمومة لحكمه كجاية¹.

وما رحل عبد المؤمن عن الدنيا حتى جمع البيعة لولي عهده وابنه محمد الذي خلع لاحقا واستبدل بأخيه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي أعلن عن نفسه أميرا للمؤمنين وخليفة للمسلمين سنة 562 للهجرة وتوطد له الحكم في المغرب فسير الغزوات بالعشرات ضد الممالك النصرانية في الأندلس حتى سقوطه مجاهدا فيها سنة 580 للهجرة²، وخلفه بعدها ابنه المنصور ذو النصر الشهير بالأرك سنة 591 قاصما لظهر النصارى بجزيرة الأندلس كما قصمت ظهرهم الزلافة من قبل قرن ونيف³، لكنه لسوء الحظ لم يدم الحال لولده الناصر من بعده الذي هزم في العقاب وقبلها كانت بوادر الضعف في شرق مملكته تبدت بقلقل بني غانية وتسليم حكم افريقية لبني حفص وكان هذا في أواخر العقد الأول من القرن السابع للهجرة⁴.

يجعل الكثير من المؤرخين تلك الفترة بداية التدهور للسلطة الموحدية إذ لم تعرف الدولة سلاطين ذوي بأس كأوائلهم وإن عرفت فقد أعاقتهم الصراعات والثورات المتعاقبة والتنازع داخل الأسرة المؤمنية وذلك لما كان من تولية ذوي الأحلام والنهى وتضارب المصالح بين أشياخ الموحدين والسلاطين المبايعين، فقامت بينهم الفرقة، وزاد الطين بلة دخول بني مرين المغرب الأقصى، وظهور بني زيان في الأوسط واستبداد بني حفص في الأدنى، واضطراب أمر الأندلس وانفكاك عقدها⁵، فكان تهاون أمر بني

¹ نفسه، ص707.

² روجي لي تورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة: أمين الطيبي، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م، ص80، 82.

³ المرجع نفسه، ص86.

⁴ نفسه، ص94، 96.

⁵ نفسه، ص103.

عبد المؤمن وتقلص سلطتهم حتى سقوطهم النهائي بآخر سلاطينهم الملقب بأبي دبوس سنة 668 هجرية¹.

وكانت السلطة الموحدية ذات نظم لا تخالف عصرها كثيرا إذ أن السلطة في المقام الأول في يد خلائف ابن تومرت السلاطين من بني عبد المؤمن ويليهم أهل الخمسين من أصحاب ابن تومرت ثم بقية طبقات الموحدية تدريجيا، ليتطور ذلك إلى مصطلح أشياخ الموحدية لاحقا، بعد تحديثات عبد المؤمن في النظام وإضافة طبقات أخرى ذات ولاء له بالدرجة الأولى، ونجد أن الدولة الموحدية تتوزع السلطة فيها بشكل هرمي، وكانت حكومة السلطة ذات حجابة وكتاب ووزراء ينسقون تدبير الأمور في الدولة ولهم سلطة معتبرة على حسب سلطة السلطان وقوته وضعفه².

كما هو الحال في حكومة الدولة الموحدية المحكمة التنظيم فإن فرعها العسكري كان غفير العدد ويشهد لهذا الأعداد التي تمكنوا من حشدها خلال حملاتهم العسكرية الكبرى، ويتكون الجيش الموحدية من مكونات مختلفة منها العناصر النظامية والأحلاف القبلية من القبائل العربية الهلالية والسلمية والقبائل البربرية كمصمودة وكومية، ويضاف لهذا المرتزقة الذين أستقدمهم سلاطين الموحدية على فترات مختلفة كغز الترك وحتى من الروم، وكان يشارك في الجيش حتى أعضاء الحكومة من أشياخ وطلبة غيرهم³.

¹ نفسه، ص 781.

² علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 124-126.

³ نفسه، ص 122.

2- الأساليب النقدية في المدونة التاريخية:

من الملاحظ خلال مطالعة ما للمدونة التاريخية من نقد بخصوص الفترة والسلطة الموحدية هو ظهور أساليب وأنماط نقدية خاصة بمؤرخيها، وجب ذكر بعض منها وحصرها في أساليب معينة حتى يتقطن لها خلال عملية رصد النقد وتحليله، وقد عملت على إيراد أمثلة من المدونة المشرقية أيضا لا المغربية فقط في الأساليب ذلك أن الراصد لظاهرة ما إذا أراد إدراك أساليبها المحتملة بشكل كامل وجب عليه النظر في الظاهرة من داخل الحيز المدروس وخارجه، حتى لا يحتويه الحيز فيكون مدركا لما داخله فقط غافلا عن نقائصه التي وردت خارجه إن وردت، كما أن المصادر المشرقية في غالبها ليست بمصادر أولية في التاريخ الموحد بل ثانوية ناقلة وبذلك تكون قد حوت ونقلت من الأساليب النقدية المغربية وزادت عليها إن كان ذلك.

والنقد بكونه عملية تمييز الحسن من الرديء فيمكن فصل النقد السياسي إلى شقين، أولا: النقد المُشِين، وهو نقد التقرير والتقبيح ويمكن الاصطلاح عليه بالنقد السلبي، وهو ما يجول في الأذهان غالبا عند ذكر مصطلح النقد، ومثال ذلك نقد ابن الأثير لعبد المؤمن وسياسته بقوله "كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير"¹، وقد يمتد النقد السلبي لأبعد من المعايير ليصبح تقريرا وتحاملا في بعض الأحيان.

وثاني شقيه: النقد المؤيد، المثنى، وهو نقد التحسين والإشادة بحسن السياسة، ويمكن الاصطلاح عليه بالنقد الإيجابي، وهو لربما ما قد تغفله الأذهان في كثير من الأحيان لغلبة النقد السلبي على مخرجات عملية النقد، ومن أمثلة هذا النقد أيضا نقد ابن الأثير الإيجابي لعبد المؤمن في موضع آخر "وكان عاقلا حازما سديد الرأي حسن

¹ عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد بن الأثير الشيباني، الكامل في التاريخ، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج9، ص461.

السياسة للأمور كثير البذل للأموال"¹، وقد يمتد النقد الإيجابي في مواضع أخرى ليصل حد التقريظ والمدح الزائد عند المؤرخين.

وأما عن أساليب طرح النقد بشقيه فإنها تكون في غالبها لا تخرج عن ثلاثة، أولها ما يكون مباشرا كما رأينا، التصريح بالخبر ونقد السياسة إيجابا أو سلبا كما رأينا في المثالين السابقين، وهو أسلوب النقد المباشر والذي إذا كان إيجابيا فلا يحتاج صاحبه للمواراة وإضمار نقده بأساليب أخرى وقد يكون صاحبه في حل من أية توابع أو قيود تلجئه لأسلوب مغاير.

ومن الأساليب المغايرة النقد المبطن، الذي لا يصرح صاحبه به مباشرة لغاية في نفس الكاتب أو تقية منه لما يترتب عنه، فيضطر لإضماره ويترك ذلك للقارئ اللبيب كي يلتقط الإشارة، ومن وسائله استخدام ألفاظ تضرر معنى أكبر، ومن أمثلة ذلك ما ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان سببا في نكبة أبي الوليد بن رشد وتسميته سلاطين الموحدين بملوك البربر إذ في ذلك تضمين بعدم اعترافه بإمارتهم على المسلمين جميعا وتجريد من منصب الخلافة الذي ادعوه²، وغالب استخدام هذا الأسلوب يكون في النقد السلبي إذ تقل الموانع مع نظيره الإيجابي.

أما ثالث الأساليب وقد يتقاطع مع المبطن، وهو النقد بالإخبار، حيث لا يكون الكاتب مصرحا مباشرة بنقده ولكنه يكون مدركا وانتقائيا في اختيار ما ينقله عن أخبار السلطة المنتقدة وذلك فيه شيء من إرجاء النقد ليكون من القارئ بنفسه، حيث يقدم مقدمات النقد ليكون ما على القارئ سوى النقد بنفسه، وهو أسلوب ذكي من الكاتب يسهل عليه إيصال موقفه دون تصادم أو اتهام بالانحياز.

¹المصدر نفسه، ص461.

²عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م، ص224.

ويكون النقد بالإخبار تارة سلبيا كما حدث عندما روى ابن كثير خبر ظفر عبد المؤمن بقبيلة دكالة دون التعليق عليه واكتفى بذكر قتل خلق كثير منهم وسبيهم¹، وقد تضاف للنقد السلبي بالإخبار ألفاظ للمبالغة تسهل من وصوله كما فعل ابن كثير في ذكره لدخول الموحدين مراكش وذكره أنه قتل بها أمما لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل²، ونجد هذا النوع أيضا في المدونة المغربية والتي هي في الغالب مصدر النقل الأول بخصوص دكالة وذلك عند اليسع عند الإخبار عن بيع سبي دكالة "انتهى البيع فيهم إلى بيع المرأة بدرهم والغلام بنصف درهم"³، فينوب في هذه الحالة الخبر عن النقد الصريح، وكفى بالخبر ناقدا.

كما يكون النقد بالإخبار تارة أخرى إيجابيا، فذكر محاسن الأفعال والسياسات يكون بديها فلا يكلف الكاتب نفسه الإطالة والتفصيل، والأمثلة على ذلك كثير ولربما هي الغالبة، ومن ذلك ذكر صاحب الحل غزوات المنصور في الأندلس دون إطالة في الثناء إذ تلك الغزوات تنوب عن أي كلام⁴.

إلا أنه من بعض مشاكل النقد بالإخبار إمكانية استخدام الخبر نفسه للمدح أو الذم وذلك يعتمد على انتماء الكاتب والقارئ، ونرى ذلك في خبر قتل ابن تومرت لأحد أصحابه لتشكيكه بعصمته، بين بن القطان ذو التوجه الموحي وابن عذاري ذي

¹ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، القاهرة، 1997م، ج16، ص248.

² المصدر نفسه، ص247.

³ أبو يحيى اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني، المغرب في محاسن المغرب، دراسة وجمع وتوثيق: عبد السلام الجماطي، ط1، دار الأمان، الرباط، 2016م، ص183.

⁴ مؤلف مجهول، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامه، ط1، دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء، 1979م، ص159.

المبول المرينية، فعند ابن عذاري وكل معادٍ هي قتل للمقربين وعند بن القطان وكل موالٍ حزم وتمييز لأصحابه¹.

¹ أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013م، ج3، ص56.

الفصل الأول:

المنابع والخلفيات النقدية في المدونة التاريخية الوسيطة للغرب الإسلامي.

أولاً: المنابع النقدية.

ثانياً: الخلفيات النقدية.

أولاً: المنابع النقدية.

1- النقد السياسي في الثقافة العربية:

للثقافة سلطان على العقول والأفعال ولا ريب على ما تخطه الأيادي، ولكل سمة وخلق وطبع منبع انفراد أو تعدد، وهو حال النقد، الذي هو عملية وحاسة تدخل في تشكيلها منابع تشجع بروزها وتدكيها أو تطفئها، والناظر في المدونة التاريخية الإسلامية الغربية الوسيطية ومنابع ما فيها من ظواهر وأساليب لا يسعه الجهل بثقافة اللغة التي خطت بها، وإن كانت اللغة ذات حمل ثقافي فإن الثقافة ذات حمل سلوكي.

والمقصود بدراسة النقد ومنبعه في الثقافة العربية هو محاولة الإطلال على حال نقد السلطة في تاريخ العرب قبل العصر الموحد في جاهليتهم وإسلامهم والذي دون في تواريخهم وكتبهم وسالت به المحابر شرقاً وغرباً، وقد يقذف في الأذهان تساؤل عن علاقة دولة في أقصى الغرب الوسيط بما حدث في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويتلاشى هذا ما إن عرف المرء مدى شيوع مؤلفات نقلت تلك الفترة وما حوته من ثقافة نقدية سياسة وتداول تلك الكتب لدى المؤرخين والمؤرخ لهم من سلاطين صانعة ثقافتهم وسلوكهم، أمثال العقد الفريد لابن عبد ربه¹ وخريدة القصر للأصفهاني.

ويظهر تأثير تلك الثقافة في الأسلوب النقدي وتلقيه لدى السلطة من خلال مواضع عدة، فعند السلطة نجدتها متشعبة بهذه الثقافة كحال السلطان أبي يعقوب الذي يصفه عبد الواحد "أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع

¹ وهو عند ياقوت الحموي: "أبو عمر من أهل العلم والأدب والشعر وهو صاحب كتاب العقد في الأخبار، مقسم على عدة فنون، وسمى كل باب منه على نظم العقد كالواسطة والزيرجدة والياقوتة والزمردة وما أشبه ذلك. وبلغني أن صاحب ابن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده، فلما تأمله قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه فرده". ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص463.

أخبارها في الجاهلية والإسلام"¹، ونجد عبد المؤمن وجيشه كانوا على علم بالكاهن الجاهلي سطيح بن ربيعة وزار قبره المدعى في سطيف وفي المؤرخين نجد بن القطان وقبله البيهقي نقلوا القصة كمنقبة لعبد المؤمن وأن سطيح قد تتبأ به²، كما نجد ابن عذاري في احد انتقاداته ينقل عن المسعودي لأبي العتاهية موظفا إياها في نقده³، وقد لا يدرك الناظر لبعض النقد تضمينه إذا لم يدرك من أدب العرب القدر الأدنى، كما في نقد ابن شبرين لأبي دبوس آخر سلاطين الموحدين الذي اتسم عصره بالفوضى بذكره له بأنه من سراة الناس، وفي ذلك إشارة للبيت الجاهلي للأفوه الأودي:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَا لَهُمْ سَادُوا⁴.

والنقد السياسي في الثقافة العربية يظهر في مؤلفات تروي ما يعطي نظرة حول النقد وقابليته لدى ذوي السلطة، ومنها مؤلف الأصمعي الذي ألفه للمأمون العباسي "تاريخ ملوك العرب الأولية من بني هود وغيرهم" وينقل فيه احدى وصايا يعرب لأبنائه "أن يعرب أوصى أبناءه بخصال... والعدل في الرعية والتجاوز عن المسيء... والأخذ بالرأي لأنه لا بد للملك ممن يعينه في الرأي والأمر والنهي"⁵ ويظهر هذا النص صح أم لم يصح قابلية لتقبل النقد السلطوي لدى الجاهليين أو الإسلاميين على أقل تقدير إذ ألف للمأمون وشاع في الأقطار.

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص176.

² أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك بن القطان الكتامي المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص184.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ص56.

⁴ أبو بكر محمد بن أحمد بن شبرين الجذامي السبتي، نظم ابن شبرين لميزان العمل لابن رشيق، تحقيق: محمد بن شريفة، نشره ضمن كتابه: ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ط01، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2008م، ص351.

⁵ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط4، دار الساقي، بيروت، 2001م، ج9، ص217.

ولا يمكن المرور على أمور الملوك في الجاهلية دون الورد على معلقة عمرو بن كلثوم التي تظهر عقلية نقدية جريئة للملوك آنذاك وفيها ما فيها من الأنفة والتصريح بالنقد، وقد كان موجها لعمرو بن هند ملك الحيرة التي أشد منها عنده:

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرَو بْنَ هِنْدٍ تَطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
تَهَدَّدْنَا وَتُوَعِدُنَا رُوَيْدًا مَتَى كُنَّا لِأَمِّكَ مَقْتَوِينَا
إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ حَسْفًا أَبِينَا أَنْ نُقِرَّ الذَّلَّ فِينَا¹

ولنفس الملك وقائع كثيرة مع نقاده من الشعراء الذين وفدوا على الحيرة، فقد وصفه الرهاب العجلي بأنه ملك يعتدي ويجور²، وصاحب معلقة آخر وهو طرفة بن العبد الذي تباطأ الملك في استقباله فأشعر ينتقد:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قبتنا تخور
لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير
قسمت الدهر في زمن رخي كذلك الحكم يقصد أو يجور³.

تعج المدونات الوسيطية بمواقف مماثلة من هجاء الملوك، واستمرت ظاهرة التصريح بنقد الملوك تقريظاً وتقريحا لما بعد البعثة بقرون ولعل مثال المتنبّي وكافور وسيف الدولة كافٍ للتمثيل عن ذلك، ونجد في مواضع كثيرة أخرى أن النمط الغالب والصورة العامة عن الملوك هي الظلم والتجبر سواء عند الجاهليين أم الإسلاميين، ولربما عند الأخيرين كان من تأثير القرآن الكريم ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ إِنَّ

¹ جواد علي، المرجع السابق، ج5، ص255.

² نفسه، ص242.

³ نفسه، ص243.

الْمُلُوكِ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ¹، ومن أمثلة الصورة السلبية ما نقله الجاحظ عن التابعي الأحنف بن قيس سيد بني تميم:

وَإِنَّ مِنْ السَّادَاتِ مَنْ لَوْ أُطْعِمَهُ دَعَاكَ إِلَى نَارٍ يَفُورُ سَعِيرَهَا²

وينقل الجاحظ عن حميضة بن حذيفة³:

أَيْظَلِمُهُمْ قَسْرًا فَتَبًّا لَسَعِيهِ وَكُلِّ مَطَاعٍ لَا أَبَالَكَ يَظْلِمُ⁴

وعن آخر قوله:

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ الْحَلْمِ فِي الْحَيِّ ظَالِمًا تَحَمَّطُ فِيهِمْ وَالْمَسْوُودُ يَظْلِمُ⁵

تؤسس هذه وما سبق من المواقف وأخرى تعجز الأعمار عن الإحاطة بها كلها لعقلية مستعدة للنقد السياسي إيجابا مادحا كان - وهو الأسهل مسلكا وعواقبا- أو سلبا قادحا - وهو الأوعر-، فيحمل المثقف بهذه الثقافة سلوكها النقدي وأسلوبها في صدره ويسكب منها في صدور كتبه وإن بعدت أزمانه وأقطاره.

¹القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع، سورة النمل، الآية 34.

²أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، 1996م، ج3، ص80.

³لم أجد له ترجمة في معاجم الأدباء.

⁴الجاحظ، المصدر السابق، ص80.

⁵نفسه، ص81.

2- نقد السلطة الحاكمة في الإسلام:

ما كان تأخير هذا المطلب عن سابقه لسبق أهمية للأول وإنما لاحتواء الأول على مجال زمني أقدم، فإن هذا المنبع هو الأكثر والأشد تأثيراً في العلاقة بين الناقد والنقد والسلطة، إذ يضبط العلاقة بين بين عناصر النقد وهو المشرع لها والمحضر في أحيان كثيرة لهذه العملية، بل وقد يستعير المؤرخون النقاد في أحيان كثيرة من الأساليب النقدية الواردة في المصنفات الشرعية، إذ هم أيضاً مع سلوكهم درب التاريخ قد سلكوا درب العلوم الشرعية في أحيان كثيرة.

ومن أمثلة تأثير هذا المنبع في المدونة المغربية ما وظفه ابن القطان من أحاديث لنقد ابن تومرت إيجاباً وناقداً سلماً لخصومه كمن حاججه من العلماء "يبيعون دينهم بدنيا غيرهم"¹ وأخرى في ذم التشبه بالنساء قياساً بذلك تلثم المرابطين²، ومورداً آيات في عدم الركون إلى الظالمين وطاعة المفسدين³، وجرى مثل مجراه ابن الكردبوس بتوظيف الآيات في نقد المرابطين سلماً وجعلهم كالأنعام بل أضل سبيلاً⁴.

على خلاف السلبي نجد هذا التأثير في الأسلوب في النقد الإيجابي التثميني عند ابن أبي زرع الذي ثمن الأمن في عهد أبي يوسف الموحد: "فكانت الطعينة تخرج من بلاد لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعارضها"⁵، وهذه محاكاة للحديث الصحيح الشهير في دلائل النبوة "فإن طالت بك حياة لترين الطعينة ترتحل من الحيرة

¹ ابن القطان، المصدر السابق، ص 95.

² نفسه، ص 97.

³ نفسه، ص 98، 99.

⁴ عبد الملك بن محمد بن الكردبوس التزوي، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: صالح بن عبد الله الغامدي، ط 1، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المدينة، 2008م، ج 2، ص 1314.

⁵ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط 1، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص 217.

حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله"¹، ويظهر تأثر بن صاحب الصلاة هو الآخر بهذا المنبع وضبطه إياه بقوله إنه على رأي عمر... لا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه²، ويمتد التأثر من النقاد إلى السلاطين فنجد أبا يوسف منتقدا لأخيه الخارج عليه ومبررا لقتله بحديث "إذا بُويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما"³، وسلطان آخر هو المأمون الموحدى قال شعرا بعد نكث الموحدين بيعته متمثلا بشعر لحسان بن ثابت وهو يهجوا ويرثي بعد قتل عثمان رضي الله عنهم ونكث بيعته⁴.

على هذا التأثير الكبير فإن في الإسلام من نصوص غزيرة توجب وتبقي الحاسة النقدية السياسية فطنة في تقييم الحكام، مما في القرآن الكريم من ذكر لحكام جبابرة ومتسلطين على غرار فرعون والنمرود وملك أصحاب الكهف، كما يعطينا أمثلة على حكام صالحين كذي القرنين، وما في السيرة النبوية من انتقاد لجبابرة قريش وأفعالهم وسوء فعل كسرى وتجبره، كما فيه ذكر لسادات صالحين كسيد الأوس سعد بن معاذ والنجاشي حاكم الحبشة رضي الله عنهم.

تعج الأحاديث النبوية هي الأخرى بما يظهر عظم أمر سياسة الأمة والتهاون فيها ففي حديث مسلم "ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة"⁵ وفي آخر "لا يسترعي الله عبدا رعية، يموت حين يموت وهو

¹ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، بيروت، 2001م، ج4، ص197.

² أبو محمد عبد الملك بن محمد بن أحمد بن صاحب الصلاة الباجي، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص21.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص205.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص250.

⁵ مسلم، المصدر السابق، ج1، ص126.

غاش لها، إلا حرم الله عليه الجنة"¹ وفي الأحاديث ما يشجع على التصريح بالنقد الحق إذا ما رأى المسلم اعوجاجا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه"، قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد -والله- رأينا أشياء فهبنا"²، وفي حديث آخر عن احتقار المرء نفسه إذا لم يصرح بالحق: "يرى أمرا، لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى"³.

تتسع الصدور للنقد في الأحاديث الصحيحة لحد في بعض الأحيان مبهر، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل يتقاضاه، فأغظ له، فهم به أصحابه، فقال: دعوه فإن لصاحب الحق مقالا"⁴، وفي حديث آخر لأبي ذر رضي الله عنه: "قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: "يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها"⁵، ولربما قد يسعنا هنا إن لم يكن تجاوزا منا أن نصنف قول 'إنك ضعيف' بنقد سياسي سلبي موجه لأبي ذر والله أعلم.

في الحديث الشريف ما يضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم وشروط الطاعة، ففي صحيح البخاري: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر

¹ نفسه، ص125.

² أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، دار الرسالة العالمية، بيروت، 2009م، ج5، ص141.

³ المصدر نفسه، ص142.

⁴ البخاري، المصدر السابق، ج3، ص118.

⁵ مسلم، المصدر السابق، ج3، ص1457.

بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"¹، وقد لا يسعني استنكار جميع ما ورد من أحاديث في الحقل الدلالي للنقد السياسي إلا أنني أعتبر ما ورد في صحيح مسلم من أهمها عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"².

وقد ثمرت هذه التربية النبوية في جيل الصحابة من بعده، عند أول الخلفاء الراشدين أبي بكر رضي الله عنه الذي كرس مبدأ النقد السياسي إيجابيه وسلبيه في خطبة بيعته "فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة"³، وتبعه على ذلك الخلفاء الراشدون في مواقف عدة، واستمر الأمر لما بعد ذلك فنجد أبا سعيد الخدري ينكر على مروان بن الحكم علنا حين بدأ بالخطبة أولا في صلاة العيد ثم روى حديث: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فقلبه، وذلك أضعف الإيمان"⁴.

ويعلق ابن القيم في سياق نقله كلام حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في الصدع بالحق "فقد أنكر أبو سعيد على مروان وهو أمير على المدينة، وأنكر عبادة بن

¹ البخاري، المصدر السابق، ج9، ص63.

² مسلم، المصدر السابق، ج1، ص69.

³ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990م، ج4، ص312.

⁴ مسلم، المصدر السابق، ج1، ص69. وقد استدلت جمع من العلماء بهذا الحديث وهذه الواقعة على جواز الإنكار على الأمراء إذا خالفوا السنة كابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

الصامت على معاوية وهو خليفة، وأنكر ابن عمر على الحجاج مع سطوته وبأسه... وهذا كثير جدًا"¹.

قد لا يجوز التعرّيج على النقد السياسي في الإسلام في سياق مغربي دون ذكر موقف إمام المذهب السائد مالك في هذا، وهو الذي اشتهر موقفه الشجاع في محنته التي ضرب فيها من السلطة العباسية إذ جاهر بالقول بعدم جواز طلاق المكره الذي نهاه أبو جعفر المنصور عن التحديث بهذا الحديث، فإنه إن صحت يمكن اعتبارها نقداً مبطناً ويقاس عليها عدم جواز بيعة المكره، فالحادثة كانت مزامنة لثورة بن النفس الزكية²، وقد نقل أيضاً تشجيع أبي جعفر لمالك على نقد عماله والكتابة بذلك له "إن رابك ريب من عامل المدينة... فأكتب إلي بذلك أنزل بهم ما يستحقون"³.

فمما سبق من أحاديث وأخبار وهو اختصار الاختصار يمكن تصور مدى تحفيز هذا المنبع النقدي والإلهام الذي يبثه في المتشعب بهذه النصوص الدارس لها إن كان ذا قلم شجاع، وفي السلطان من سعة صدر للنقد فإنه مهما علا لن يعلوا مقاما على صحابة مفضلين وخلفاء راشدين إن سار مسارهم وأتبع سنتهم⁴.

¹ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تعليق وتخريج: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 2002م، ج6، ص14.

² محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1952م، ص77.

³ المرجع نفسه، ص83.

⁴ للاستزادة في هذا المطلب انظر: عبد الرحمن توفيق محمد المدقة، "وسائل محاسبة الحاكم -دراسة فقهية معاصرة-"، أطروحة ماجستير في الفقه المقارن، كلية الشريعة والقانون، الجامعة الإسلامية، غزة، 2017م. وانظر أيضاً: عبد العزيز البديري، الإسلام بين العلماء والحكام، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2014م.

3- النقد السياسي في الثقافة المغربية قبل الموحدية:

يؤثر القول ان لكل حادثٍ محدثًا، ولا بد لكل حادث من مبدأ، ولكل ظاهرة من جذور، وكما رأينا أن للنقد السياسي في المدونة الغربية الوسيطية من منابع عربية وإسلامية، وعلى كونها في سياق مغربي فلا بد لهذه الظاهرة من مبادئ مغربية.

ولعل أول ظهور للنقد السياسي في مغرب الإسلام ما استنكره جمع من الصحابة والتابعين أيام فتح أفريقية الأولى على بن أبي السرح رضي الله عنه من استنثاره بخمس الغنائم وسعيهم عند الخليفة عثمان رضي الله عنه بعزله¹، كما نجد نقدا إيجابيا لعقبة عندما وصف لمسلمة بن مخلد "فإن له فضلا وسابقة وهو الذي بنى القيروان ومسجدها"²، وتظهر موجة من النقد السياسي لاحقا مع بوادر ثورات الخوارج مثل التي وجهت لعامل طنجة عمر بن عبد الله المرادي التي تلتها ثورة الصفرية³، ويسبقها بعقدين موقف آخر شهير في النقد العلني الذي حدث ليزيد بن أبي مسلم "جعلنا في منزلة النصاري"، والذي أدى لقتله في مصلاه بالقيروان⁴، وانتقادات أخرى تظهر حتى داخل السلطة الأموية كانتقاد عبيدة بن عبد الرحمن السلمي بشعره لبني مروان الأمويين بعد عزله⁵.

على اضطراب أحوال المغرب والأندلس في تلك الفترة تزداد حاسة النقد السلبي وتكون ملازمة كرد فعل على سوء الإدارة برأي المنتقد، إلا أن النقد الإيجابي كان

¹ على أن استنثار بن أبي السرح بالخمس كان بعد أن قدم له الخليفة عثمان رضي الله عنهم عرضا إن فتح أفريقية فله خمستها إن نجح، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، 36، 37.

² نفسه، ص46.

³ نفسه، ص82.

⁴ أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م، ص62.

⁵ المصدر نفسه، ص64.

حاضرا من مؤرخي ما قبل الفترة الموحدية، فالرقيق القيرواني نجده يشيد بولادة عدة كانت سيرتهم حسنة كإبراهيم بن الأغلب التميمي "ولم يل إفريقية قبله أحد من الأمراء أعدل منه سيرة ولا أحسن سياسة..."، فكان نقده في غاية الإيجابية لسياسته¹.

ويظهر في المدونة المغربية في هذه الفترة لون من الكتب يضمن فيه نوع من النقد السياسي السلبي للحكام وسوء صنيعهم وخاصة بأهل العلم، ألا وهي كتب المحن، ولا أشهر من كتاب المحن لأبي العرب التميمي، الذي كان هو نفسه قد ألمت به مخنة وشهد دخول العبيدين إفريقية، وأضمن أبو العرب في كتابه محن كالتي حلت على البهلول بن راشد على يد محمد بن مقاتل العكي²، وامتحان سحنون بن سعيد التتوخي في خلق القرآن من لدن الأغلبية³، وآخرون سجنوا، فكان الكتاب بطريقة غير مباشرة نقدا غير مباشر لما قام به من تقدموا من الحكام مشرقا ومغربا.

ونجد لونا آخر من المؤلفات دخل وظهر في بلاد الغرب الإسلامي قبل القرن السادس للهجرة وهي كتب الآداب السلطانية التي ترشد الملوك إلى السياسة الرشيدة لتدبير شؤون الدولة وتحديد العلاقة بين الحاكم والرعية والعلماء وطريقة النصح لهم، فمنها ما ألفه سحنون في الإمامة والرقيق القيرواني الذي ألف كتابا ضخما في السياسة سماه "نظم السلوك في مسامرة الملوك"، وفي الأندلس للرازي القرطبي "في الوزارة والحجابه" وكتاب "السياسة" لابن حزم الظاهري، ليظهر بعدها كتاب "الإشارة في تدبير

¹ نفسه، ص 127.

² أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، كتاب المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م، ص 27.

³ المصدر نفسه، ص 352.

الإمارة" للمرادي الحضرمي وكتاب "سراج الملوك" للطرطوشي¹، كنتتويج للفكر السياسي الغرب إسلامي في القرون السابقة لظهور دولة الموحدين.

احتوى هذا اللون من الكتابات الحث على مصاحبة العلماء للأمراء لتقديم النصيحة والإرشاد لهم من باب تحسين بطانتهم وعدم تركها لمن هم دونهم في العقل والنظر، ورأت هذه المؤلفات أنهم أمن من يمكن أن يصاحب السلطان وفي تمكنهم قطع لأطماع الغواة من أهل الأهواء الفاسدة، ويؤكد الغزالي الذي بلغت مؤلفاته المشار والمغارب وكان لها الأثر الشديد البارز على نقطة أهمية العلماء في إرشاد السلطان إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم².

وضمن المؤلفات النقدية وان كانت خارج المجال السياسي على خلاف النقد الأدبي في العصر المرابطي، مؤلفاً ضمن لون المثالب وهو مؤلف "قراضة الذهب في ذكر لئام العرب" لابن وهيب الأندلسي وهو الذي كان قد ناظر ابن تومرت في البلاط المرابطي وأوصى بسجنه، وقد ضمن كتابه لئام العرب في الجاهلية والإسلام، ذكرا لقصصهم وناقدا لتصرفاتهم³.

بهذا التراث الغربي السياسي والنقدي الناضج تكون الروح النقدية السياسية مهياً بالفعل قبل العصر الموحي، مشكلة منبعا محليا هو الآخر مسهما في إنكاء النقد بنوعيه وأساليبه والتصريح به، معبدة الطريق النقدية لمن سيأتي من كُتاب لاحقين عن تاريخ دولة الموحدين.

¹ ياسين شبيايبي، المرجع السابق، ص 199-123.

² إلهام قاتل، "العالم والسلطان في المغرب الأوسط -جدلية ولاء وبراء-"، مجلة عصور جديدة، مخبر التاريخ، جامعة وهران، ع23، أوت 2016م، ص271.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص140.

4- النقد السياسي في الثقافة الموحدية:

تتعدد المؤثرات والمنابع المؤثرة في قرائح أصحاب الأقلام، غير أنه لا جدال أن الناس أبناء زمانهم على ما ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمنبع الأقرب زمننا لذي المداد له أثر عظيم على ما يخط من نقد، ولدولة الموحدين علاقة خاصة بالنقد يمكنني الفصل أنها لم تكن لدولة قبلها ولا بعدها في الغرب الوسيط.

فالدولة الموحدية قامت كحركة على مبدأ النقد متمثلا في حركته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإسكندرية إفريقية فالناصرية ثم تطور النقد أو ظهر بشقه السياسي الديني الحقيقي عند دخوله المغرب الأقصى بعد صداماته الأولى الحسبية بانتقاد تغاضي المرابطين عن بيع الخمر جهارا واكتساب الخنازير¹، وشاع عنه مشيه في الأسواق وكسره المزامير وآلات اللهو وإراقة الخمر، إذ تطور نقده لفعل، ثم أخذ يستنقص من المرابطين ويطعن فيهم وينسبهم إلى التجسيم والكفر، ويدعوا إلى خلع طاقتهم²، مستخدما نقدا دينيا، وكان قد شنع في مراكش على أخت أمير المرابطين جهارا مما جذب الانتباه إليه فأزداد حدة في النقد حتى دعا إلى قتالهم³.

وأستمر النقد السياسي السلبي على المرابطين في مرحلة الثورة وحتى فيما بعدها، إذ نجد ابن تومرت قد أفرد في كتابه أعز ما يطلب بابا لنقد الملتئمين جمع فيه أصناف عدة من النقد السياسي سماه "باب فيما أحدثوه من المناكر والمغارم وتقلبهم في السحت والحرام... وتجسيمهم وكفرهم أكبر"⁴، واستمر في كتابات الموحدين من بعده هذا النسق

¹اليسع، المصدر السابق، ص27.

²ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص173.

³نفسه، ص174 و175.

⁴أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي الهرغي، أعز ما يطلب، تحقيق: عمار الطالبي، ط1، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، 2007م، ص244.

من النقد الموجه للمرابطين، إذ نجد في الرسالة التي خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر المرسي¹ عبد المؤمن بن علي انتقادات لاذعة للملثمين في مجالات عدة سلطانية واجتماعية ودينية واقتصادية وللحال في عهدهم حتى يحسب القارئ أنه يصف أهوال يوم القيامة لا الوضع تحت حكم دولة ما².

عرفت السلطة الموحدية نقدا سياسيا ذاتيا داخليا، فمنذ عهد ابن تومرت الذي وجه نقدا لأتباعه على شكل نبوءة "هكذا تتخاطفون بعدنا على الدنيا"³، ونقدا ذاتيا اقتصاديا من عبد المؤمن وربما كان فيه إنصاف للمرابطين وذلك لتمكنهم من بذل المال لجنودهم رغم ملكهم تلمسان فقط وعجز خزينته عن دفع المال للجنود رغم ملكه من إفريقية حتى الأطلسي⁴، وينتقد حفيده المنصور على فراش موته بعضا من سياساته بناؤه رباط الفتح وإطلاقه أسارى الأرك وإدخاله العرب من إفريقية إلى المغرب⁵، إلا أن ما عند بن عذاري تنفي الأخيرة إذ استوصى بالعرب المستقدمين خيرا على فراش موته⁶، ويكون المنصور هنا قد انتقد سياساته أكثر مما قد انتقده لاحقون.

استمر النقد الذاتي لدى سلاطين الأجيال اللاحقة وكما قدمت في المطلب السابق، على زيادة اضطراب أمور الدولة يزداد النقد، فالمأمون الموحد الذي كان عصره مضطربا نراه ينتقد أشياخ الموحدين⁷، وينتقد بأثر رجعي الدعوة التومرتية التي

¹ وهو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن المرسي من أسرة بني طاهر المشهورة والتي تولت رئاسة مرسية مدة طويلة وجده كان تغلب عليها أيام الطوائف. انظر هامش: ابن القطان، المصدر السابق، ص101.

² نفسه، ص103.

³ أبو بكر بن علي البيذق الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط1، دار المنصور، الرباط، 1971م، ص43.

⁴ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص117.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص230.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص340.

⁷ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص250، 251.

أزال رسومها وألغى المهدوية المدعاة المتبناة من الدولة ونسب الكفر بها من سابقين لم يظهروا ذلك كالمنصور¹، ويُنتقد المأمون نفسه من داخل السلطة الموحدية من طرف شاعر يحيى بن الناصر على استعانتة بالنصارى²، ومثله نجد انتقادا داخليا من عمر أخي المنصور إذ بدأ في الانتقاص منه على رؤوس الأشهاد تعريضا وتصريحا³، ويأتي النقد في أحيان أخرى من طبقات أدنى من السلطة كما في حالة رفض والي الموحدين على سجلماسة مبايعة السعيد المعتضد لسواد بشرته⁴.

مرت على السلطة الموحدية أساليب نقدية عدة، فمع استخدام ابن تومرت للنقد السياسي الهجومي فإنه استخدم النقد العكسي الدفاعي منذ البداية أيضا، فبعد تسمية المرابطين له ولأتباعه بالخوارج رد حسب البيهقي بتسميتهم المجسمين⁵، وسماهم أيضا بالزراجنة وهو جمع زرجان طائر أسود البطن أبيض الريش إشارة لملايس المرابطين البيضاء واصفهم مكانهم بالسوداء⁶، واستطال ابن تومرت في تسمياته لهم حتى لقبهم أيضا بالحشم لأن لثامهم كنعاب النساء المحتشمات⁷، فجمع في انتقاداته وتقريعه بهم ظاهرهم وباطنهم مما أشاع نقده العكسي في إطار الحرب المعنوية التي شنّها عليهم، فنقده قد تجاوز مرحلة الإصلاح أو تمييز الصالح من الطالح إلى التوظيف، استطاع أن يجعله بذكائه وسيلة لإسقاطهم من قلوب العامة قبل إسقاطهم من العرش.

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 164.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ص 401.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص 201.

⁴ نفسه، ص 494.

⁵ البيهقي، المصدر السابق، ص 38.

⁶ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 111.

⁷ ابن القطان، المصدر السابق، ص 132.

ثانيا: الخلفيات النقدية.

1- المشارب المذهبية والفكرية:

إن كان النقد ثمرة والمنابع النقدية سقاية وبذرة فإن الخلفيات النقدية مناخ وتربة والأصل في نماء الشجرة، وبعض النباتات تتفاوت في تحديها لتربتها وتعلوا شامخة كالنخيل، وبعضها لا تثمر أي نتيجة ولو زرعت في متيجة، والناس أيضا في تفاوت وكذلك المؤرخون، ولخلفيات عصورهم عليهم أثر، وقد لا يكون، ونحن هنا في موضع لدراسة التريات التي أنتجت مؤرخينا، لنستبصر إن كان لها الأثر في نقدهم، وأولها هي ما راج عند أهل القرون الوسطى من تمذهب وما كان لهم من تمسك به ودور في أحكامهم ورؤاهم، وما يزيد التأكيد على البحث في هذا الباب وعدم إهماله كون دولة الموحدين قد كانت في بادئ أمرها على اختلاف مذهبي مع جموع المغاربة والأندلسيين.

وبانتصار الموحدين انتشرت عقيدتهم نسبيا وما يكونها من مهدوية ابن تومرت وإيمان بالعصمة، وقد كان ممن خط في المدونة المغربية التاريخية من كان على توافق معهم ومن وقت مبكر، فقد سعوا إلى التدوين التاريخي والتأريخ لإمامهم ودولته، ومنهم البيذق، الذي كان من أبكر المؤرخين للدعوة الموحدية والأقرب لها زمنيا، فقد شارك بنفسه في صنع الوقائع كونه أحد تلاميذ ابن تومرت ورفيق عبد المؤمن¹، فالبيذق الأكثر توافقا مع العقائد التومرتية من بين المؤرخين المدروسين، وابن صاحب الصلاة قد يكون التالي له المرتبة في هذا الأمر، فهو الذي يذكر أنه أسمع عقيدة التوحيد وأعز

¹البيذق، المصدر السابق، ص5.

ما يطلب على أبي الحسن الإشبيلي، وكتبا أخرى لابن تومرت¹، فيظهر من عبد الملك اجتهاده في تحصيل عقائد الدولة الصاعدة بشكل لم يذكر للاحقيه.

ومن اللاحقين على نفس النهج من المؤرخين ابن القطان الذي نجده من خلال ما كتب يتبنى مهدوية ابن تومرت وعقائده ويترضى عليه رغم أنه عاش في وقت متأخر كانت الدولة نفسها قد نقضت الدعوة من قبل²، ومما يظهر أيضا على ما في كتاب مفاخر البربر تصديق صاحبه بمهدوية ابن تومرت، وقد أطال الكلام عنه والأحاديث الواردة في المهدي³، وربما قد يظهر الشك عليه حين ذكره فيمن تسمى بالمهدي وسماه مهدي الموحدين بالمغرب ويكون ميله نحوه لدافع عصبية لا غير⁴.

تفرع الاعتقاد في ابن تومرت لدى الدولة الحفصية إلى شكل آخر حيث حافظوا على دعوته مع تعديل في وصيته لجدهم لا لعبد المؤمن، والناس على دين ملوكهم إذ من المؤرخين الذين عاشوا تحت ظلها لم يخرجوا عن خطها كثيرا في ابن تومرت رغم اجتهاداتهم، ومنهم ابن قنفذ الذي حصل علوما كثيرة ورحلاته الكثيرة⁵، لم يخرج عن خط الدولة وروايتها عن ابن تومرت في مهدويته والترضي عنه⁶، وحتى الزركشي اللؤلؤي لم يخالف دولته التي كانت في أواخرها عن قولها في إمامته ومهدويته⁷.

¹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص12.

² ابن القطان، المصدر السابق، ص95، 141.

³ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقرق، الرباط، 2005م، ص201.

⁴ المصدر نفسه، ص206.

⁵ أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد التنبكتي النكروزي السوداني، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، دار الكتاب، ليبيا، 2000م، ص109 و110.

⁶ أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي، ط1، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص99.

⁷ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص3.

من المؤرخين الذين عاشوا تحت ظل الحفصيين عبد الرحمن بن خلدون الفقيه المالكي الأشعري قد كان أكثر تحررا من قيد الدولة بحكم تنقله بين الدول، إلا أنه لا بد أن يتأثر في موقفه من ابن تومرت، وكذلك من المالكية من بدا عليه بعض التذبذب المعاصر لعهد دولة الموحدين الأول ابن الكردبوس، الذي رغم مالكيته كما يؤكد محقق كتاب الاكتفاء¹، إلا أنه يظهر تأثره بالأفكار التومرتية الذي يصفه بالمعصوم².

وعلى الضفة الأخرى في الأندلس في دولة بني نصر أو في المغرب الأقصى ببني مرين فإنهم قطعوا الدعوة التومرتية ولم يبق أثرها عن مؤرخي هذه الدول، إذ كانت مالكيتهم أصح على غرار لسان الدين ابن الخطيب³، رغم القدح في دينه ورميه بالزندقة من أعداءه⁴، ومؤلف الحل الموشية الذي أندلسيا كان أو مغربيا فإنه على سنة الدولتين، ومثلها ابن أبي زرع الفاسي، وابن عذاري الذي وان لم يكن قد ترجم له فإن ما خطه بظهر مالكيته وعدم خروجه عن النمط المريني، على وجود فقهاء بينهم كالجزائري صاحب جنى زهر الآس والفقير العالم ابن شبرين وهو من شيوخ ابن الخطيب⁵، والفقير ابن غازي المكناسي شيخ الجماعة⁶.

لا يشترط التبعية للدولة القائمة في موقفها فمن المؤرخين من ضرب في طول الأرض وعرضها لينال مراده وينفك من قيد وطنه، ومنهم اليسع الغافقي الأندلسي الذي

¹ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج3، ص1676.

² نفسه، ج1، ص28.

³ ترجمته الكاملة في التتبعي، المصدر السابق، ص445.

⁴ لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السلماي الغرناطي، إعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج1، ص12.

⁵ ابن شبرين، المصدر السابق، ص329.

⁶ محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني المكناسي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1988م، ص5.

عاصر الدولة الموحدية في صعودها وبزوغ نجمها إلا أنه وهو المالكي ابن الأسرة العلمية وذات الجاه قد رحل عن بلاد الغرب متجها شرقا نحو مصر أين وجد قلمه سعة للكتابة¹ وحنجرته للخطابة إذ تنسب له خطبة خلع العبيديين والدعوة للعباسيين في مصر أيام صلاح الدين²، ومثله عبد الواحد المراكشي التميمي المالكي الذي ولد أيام المنصور وتتنقل بين المغرب والأندلس وبلاد المشرق وكان أكثر راحة في الحديث عن ابن تومرت والموحدين من نظراءه المعاصرين غير مسلم بمهدويته وعصمته³.

¹اليسع، المصدر السابق، ص39.

²نفسه، ص57.

³المراكشي، المصدر السابق، ص9.

2- مناهج وبواعث التأليف:

تتداخل مناهج الكتابة مع دوافعها في أحيان عدة، فما كان باعثا على التأليف يكون له أثر في المؤلف وأسلوبه، والعنصران إن تمايزا -أي المناهج والدوافع- فإن بينهما ترابطا سنرى أنماطه فيما يلي وفي نقدهم.

وكما استفتحنا بالبيذق سابقا فإن محقق الكتاب يرجح أنه قد كتب منه نسخة واحدة أهداها إلى أحد سلاطين الموحدين وأودعها أحد خزائن الدولة لينقل اللاحقون منها¹، والبيذق وان كان تومرتيا صرفا بل وسابع من بايع صاحبه فإنه قد ينصف في مواضع نادرة خصوم دولته كما أنصف المرابطي ابن بينتان وابنته²، ولربما باعته هنا أن لابن بينتان سابقة فضل على ابن تومرت فأوصى بأهله خيرا.

أما ابن الكردبوس فعمل من بواعث كتابته الاكتفاء في أخبار الخلفاء وذكره الراشدين والأمويين والعباسيين دخوله الإسكندرية وهي تحت الحكم العبيدي³، وعلى اعجابه بالموحدين ومدحه لهم فإنه لم يسمهم بالخلفاء إلا أنه لم يذكر من عاصروهم من الخلفاء العباسيين أيضا⁴، وقريب له زما ابن صاحب الصلاة وإن كان تومرتيا فإنه صان قلمه عن الانتقال من الدول السابقة للموحدين لتقواه ربما⁵، وهو الذي جعل

¹ البيذق، المصدر السابق، ص6.

² نفسه ص64.

³ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج1، ص46.

⁴ نفسه، ج3، ص1672.

⁵ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص20.

مبدأه النقدي قول عمر رضي الله عنه¹، لكنه يوجه انتقادات لاذعة لمنافسيهم المعاصرين كابن مردنيش والخارجين عليهم.

يأتي كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي بعد طلب من وزير من خاصة بطانة الناصر العباسي سنة 621 للهجرة²، وقد ذكر المراكشي ذلك بعد أن طلب منه إضافة ذكر لأقاليم المغرب في كتابه³، ومع كونه في بلاط العباسيين فإن المراكشي يخبر أنه توخى الإنصاف في تاريخ المصامدة وجهد ألا ينقص أحدا مما له ولا يزيده خردلة مما لا يستحقه⁴، وذكر في كتابه تقرير شيخ أندلسي عليه بعد مدح شعره متزلفا: "يا بني دع عنك هذه العادة فإن أسوأ ما تخلق به الإنسان الملق وتزيين الباطل"⁵.

وابن القطان وصاحب المفاخر وان لم أجد من دوافع مما كتبوه فإنه بالإمكان الاستنتاج من خلال استقراءهما أن الدافع عصبية، عقائدية عند الأول وقومية عند الثاني، واعتمد صاحب المفاخر على الجمع من كتب عدة⁶، وله بعض الأخطاء بخصوص تاريخ الموحدين⁷.

يلمع نجم بن عذاري كمؤرخ من العهد المريني وهو الذي أخبر في مقدمته أن مؤلفه جاء بطلب ممن يجب إكرامه عليه لكلفه بأخبار الخلفاء، ولم يذكر أنه بدافع

¹ "لا يتبع حواشي الكلام ولا يعاقل من المنطق ولا يقول إلا ما يعرف ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه". ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 21.

² خير الدين بن محمود الزركلي، الأعلام، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج 4، ص 176.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص 429.

⁴ نفسه، ص 242، 243.

⁵ نفسه، ص 222.

⁶ مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص 28.

⁷ المصدر نفسه، ص 87، 88.

سلطاني كأقرانه في ذلك العهد¹، واتخذ مصادرا كابن القطان والأشيري والبيدق في اخبار الموحدين²، هي كلها موالية لهم.

وبنفس الدولة أيضا نجد الجزنائي الذي كتب في تاريخ فاس، قد ألف كتابه مهديا إياه إلى أبي محمد بن علي الياباني وزير أبي عنان المريني، كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه³، ويظهر من أسلوب الجزنائي موالاته للسلطة وجعلها معيار تقييمه إذ عد من فضائل أهل فاس أنهم أقل خلافا وأكثر طاعة لأمرائهم⁴.

وفي تاريخ فاسي آخر ابن أبي زرع الذي يذكر أن كتابة الكتاب تمت بتوفيق السلطان المريني وإلهام منه وفعاله⁵، وأجزل له بالمديح قبل الخوض في كتابه الذي رصد فيه ظواهر عدة سياسية واجتماعية واقتصادية وطبيعية⁶.

وفي قسنطينة ألف ابن قننذ كتابه الفارسية تيمنا بأمرير الدولة الحفصية أبو فارس عبد العزيز، قاصدا إبراز مناقب الدولة الحفصية وعض الطرف عما يشينها والتركيز على أبي فارس⁷، ومع ولاءه فإن ابن قننذ قد أفتى بجواز الخروج على المستبدين مما سبب له بعض المشاكل⁸، ولم يعصمه ذلك من انتقاد الخارجين على الحفصيين⁹.

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص22.

² نفسه، ص23.

³ أبو الحسن علي الجزنائي التازي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991م، ص1 و2.

⁴ المصدر نفسه، ص37.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص13.

⁶ نفسه، ص8.

⁷ ابن قننذ، المصدر السابق، ص8.

⁸ نفسه، ص95.

⁹ كانتنقاده السلبي التقريعي لمن سماه الدعي المسيلي الذي تمكن من الثورة على الحفصيين والتولي لفترة. المصدر نفسه، ص144.

على ضفة الأندلس فإن ابن الخطيب في مقدمة إحاطته يجعل عصبية الغرناطية التي لا تقدر في دين ولا منصب كما وصفها سببا لتأليفه على خطى الذين أروا لمدنهم¹، وفي خاتمته يذكر سببا آخر ألا وهو الاقتداء بمن ترجم لهم²، وهو كتاب تراجم ضم فيه لسان الدين شخصيات من كل المراحل التي مرت على غرناطة ومنها المرحلة الموحدية على تأريخه لنفس الفترة في مؤلفات أخرى.

وأخر في الأندلس صاحب الحل وهو وإن كان مجهول الحال فإن محققه يرجح أنه ألف في ظل نفوذ دولة بني الأحمر وكأنه يلبي رغبة أو يقضي دينا أو يحقق هدفا من أهداف ملوكها والمعاصر آنذاك محمد الغني بالله³، ويشير صاحب الحل إلى حصار في مقدمته وخاتمته كان الدافع في كتابته⁴، على ترجيح آخر من المحقق أن الكاتب هو أبو الربيع سليمان المغربي⁵.

¹ لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السلماي الغرناطي الأندلسي، الإحاطة في أخبار غرناطة، شرح وضبط: يوسف علي طويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج1، ص6.

² المصدر نفسه، ج4، ص373.

³ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص4.

⁴ المصدر نفسه، ص7.

⁵ نفسه، ص9.

3- المؤرخ والسلطة:

لطالما عملت السلطات الوسيطية على تقريب ذوي العلم من ذوي الأقلام، ومنهم أصحاب التاريخ الذين منهم من تقرب من السلطة ومن تقربت منه، كابن طفيل الذي صاحب أبا يعقوب الموحي¹، ومنهم من كان ذا سلطة ومؤرخا كأبي الفداء الأيوبي صاحب حماة وصاحب كتاب المختصر، وعلاقة المؤرخ بسلطته قد يكون لها دور هي الأخرى في النقد الموجه للفترة المؤرخ لها وعلاقة سلطته بها وتقييمها، أو قد يترفع المؤرخ عن كل هذا، إلا أنه لا محالة من وجوب الإحاطة بذلك.

في مؤرخينا جملة من الرجال من على اتصال بالسلطة ومنهم من نفر منها وهم قليل، فالبيذق قد كان من المؤسسين لدولة الموحدين، وابن صاحب الصلاة كان من رفقاء أعيانها اللاحقين كأبي حفص بن عبد المؤمن الذي لقيه في إشبيلية²، ومصاحبا لوالي قرطبة³، ولقي أبا يعقوب الموحي قاصدا التبرك به إذ قدمه له الوزير إدريس بن جامع⁴، فلا تخطئه العين أنه قد كان من رجالات هذه الدولة والمخلصين لها.

وعلى النقيض الأندلسي الآخر اليسع الذي كانت عائلته ذات سلطة في عصر الطوائف حتى عرف ابن عم أبيه بلقب ذي الوزارتين⁵، وكان هو نفسه قد رافق بعض كتاب المرابطين قبل سقوط دولتهم⁶، وكتب اليسع هو نفسه لدى أعداء الموحدين كابن عياض والمستنصر بن هود⁷، فهنا مؤرخ معاصر لكنه قد كان في الجمع المقابل من

¹المراكشي، المصدر السابق، ص176.

²ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص10.

³نفسه، ص11.

⁴نفسه، ص180.

⁵اليسع، المصدر السابق، ص40.

⁶ومنهم أبو محمد عبد الغفور وأبو بكر بن عبد العزيز الأندلسي. المصدر نفسه، ص43.

⁷نفسه، ص71.

السلطة وذو تجربة وخبرة، ومع تغلب الموحيدين على الساحة الغربية رحل اليسع إلى المشرق ومصر تحديدا أين نال رتبته المشهورة بأن كان من كتاب الناصر صلاح الدين الأيوبي¹، وقريبه في المثل عبد الواحد المراكشي الذي وإن كان قرب من بطانة العباسيين²، فإنه كان على علاقة بأعيان الموحيدين وصديقا ليحيى بن يوسف بن عبد المؤمن وأنه نقل كثيرا من أخبار الموحيدين منه³.

ربطت ابن القطان وعائلته علاقة بالسلطة الموحدية أيضا، فوالده الذي عاصر سلاطين الموحيدين من المنصور حتى المعتصم وكان على علاقة بهم كان ابن القطان مثله في علاقته بالمرتضى الموحيدي⁴، الذي نقل ابن عذاري أنه ألف له عدة كتب ومنها نظم الجمان⁵، حتى وصف بأنه مؤرخ بلاطي متزلف متحيز⁶.

كان ابن رشيق التغلبي المرسي هو كذلك كاتبا لأبي يعقوب المريني، وهو الذي نظم كتابه ابن شبرين في أرجوزة بقيت لنا⁷، ومن لم يكن كاتباً في العصر المريني فإنه قد كان مواليا لهم أشد الموالاة كالجزنائي الذي يذكر مريني يذكر كرم الله وجهه⁸، وابن عذاري الذي ما ذكر بني مرين إلا ذكر أعزهم الله⁹، ومثلهم ابن أبي زرع بأوصاف التقريظ لبني مرين سلطة عصره¹⁰، فمن الواضح أنهم كانوا يخصونها بألفاظ تقخيم

¹ محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي البلنسي، التكملة لكتاب الصلاة، تحقيق: عبد السلام هراس، ط1، دار الفكر، بيروت، 1995م، ج4، ص237.

² خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ص176.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص180، 181.

⁴ ابن القطان، المصدر السابق، ص26.

⁵ نفسه، ص38.

⁶ نفسه، ص50.

⁷ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص264.

⁸ الجزنائي، المصدر السابق، ص34.

⁹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص384.

¹⁰ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص12، 13.

خاصة بها لانتماء منهم أو لما جرت عله العادة في عصرهم من الآداب مع الملوك أو تزلفا بغية الوصول.

من بين كل المؤرخين لعل أشهرهم سلطة وصلة بها هو ذو الوزراتين لسان الدين بن الخطيب الذي توزر عند بني الأحمر وعرف ببني الوزراتين لحمله وزارة السيف ووزارة القلم الذي بعد محنة في غرناطة لجأ لبني مرين إلا أنه ما ناله من ذوي السلطة إلا الضرر فكانت نهايته مأساوية¹.

كانت نهاية ابن الخطيب سببا في اعتزال عبد الرحمن بن خلدون السياسة بعد خدمته في بلاط بني مرين بفاس وكتابته لدى الحفصيين بتونس وطموحه لدى بلاط بني الأحمر وبني زيان²، ولربما كفاه من المحن ما حدث أيضا لأخيه يحيى بن خلدون لاحقا.

وللسلطة الحفصية هي الأخرى علاقة وثيقة بأهل التاريخ في أرضها، فعدا عن علاقة ابن قنفذ بالأمير أبي فارس الحفصي نجد علاقة قديمة بين العائلتين، فجدّه كان من ضمن وفد قسنطينة الداخل على الأمير أبي زكريا إسحاق³، وأقرب من ابن قنفذ كان الزركشي الذي كان أقرب مسافة ومكانة من السلطة الحفصية وأحد رجالها ويعرف شرحه لقصيدة في مدح السلطان الحفصي، شرح الدنامينية⁴.

¹التبكتي، المصدر السابق، ص446.

²ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1988م، ج1، ص4.

³ابن قنفذ، المصدر السابق، ص95.

⁴الزركشي، المصدر السابق، ص7.

4- السلطة والنقد:

إنما يُجرى ويردُّ الناس على فعلِ العواقب المترتبة عليه، وتكون العقوبة عليه زجراً لهم، أو التسامح معه مسهلاً لهم، والسلطات الوسيطية تعاملت مع النقد الموجه لها بصور مختلفة، شكلت في مجموعها جزءاً من الخلفية التي كانت وراء النقد الذي دون في المدونة التاريخية وانطلق منها.

كنا قد رأينا سالفاً النقد السياسي في الثقافة الموحدية واستعمال السلطة له لنقد الخصوم والنقد الداخلي، وأما إذا أتى من خارجها فإنها قد تعددت بتعدد السلاطين وطبائعهم، فعبد المؤمن كان مرحباً بالنقد إذا أتى من الرعية وطبقات الموحدين إذا كان لأحد أعضاء حكومته أو خدام غايات له كما حدث حين شكى له وزيره عبد السلام الكومي من الموحدين، واجتمع أهل تلمسان أيضاً على شكايته قبل عزله وقتله تسميماً¹، وتوجد مواقف أين انتقد أحد مشايخ الموحدين عبد المؤمن علناً وهو أبو الحسن بن واكل حين دخول مراكش لكنه قتل من المرابطين قبل رصد رد فعل عبد المؤمن²، وفعل المثل أخوة ابن تومرت حين ثورتهم عليه كيصلاتن الذي سجن³.

وعلى خطى جده يذكر أن أبا يوسف إذا ما وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن أعمالهم وقضاتهم وولاتهم طالباً تقييمهم⁴، على أن التعامل مع النقد الموجه لذاته كان غير ذلك، فابن الفرس وهو من علماء الأندلس كان تكلم في مجلس بكلام خشي عاقبته فلما خرج من مجلسه فر فاختمى مدة حتى موت المنصور⁵، وفي أيامه أيضاً

¹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 115 و 116.

² البيهقي، المصدر السابق، ص 34.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 132.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص 208.

⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 336.

نال بن رشد ما ناله في محنته لمجرد تلميح نقدي على رواية المراكشي سعي للكيد به وتم فهمه على غير موضعه¹.

يتجلى أيضا عدم قبول سلاطين الموحدين للنقد في ذاتهم في عصر لاحق ومنه ما حدث لوالد ابن القطان الذي كان مواليا لبيعة عبد الواحد فذم العادل الموحي قبل تغلبه فلم يغفرها له وطلب إحضاره والقبض عليه ثم نفاه عن مراكش²، غير أن هامش الكتابة النقدية السياسية لم يكن منغلقا تماما في العهد الموحي، فقد شاعت بعض الكتابات في عهدهم التي تضمنت انتقادات لسابقيهم ككتاب اليسع الذي نقل منه مؤرخون موحيون عدة كابن القطان.

ورث المرينيون حكم المغرب الأقصى من بعد الموحدين، ولم يتسع صدر سلاطينهم للنقد أو الهجاء، فمن الشعراء عبد المهيمن البلذوزي الذي سعى به شاعر السلطان أبو يعقوب المريني لديه بأنه هجاه فسجن ثم ضربت عنقه³، على أن لهذه الدولة بعض مواقف التسامح مع النقد، وشاهد ذلك انتقاد عبد العزيز القروي للسلطان أبي الحسن المريني في مجلسه⁴ ولم تكن عاقبته سيئة بل استرضاه.

عاشت طائفة من المؤرخين كذلك تحت الهيمنة الحفصية التي كانت ذات بأس شديد على من ينتقدها سلبا، عاميا كان أم عالما، فالعلم العالم الشهير ابن الأبار الذي

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص 224.

² ابن القطان، المصدر السابق، ص 34.

³ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 10.

⁴ "عبد العزيز هذا هو الذي قال له السلطان أبو الحسن المريني: تخرج مع عامل الزكاة فقال له عبد العزيز: أما تستحي من الله تعالى، تأخذ لقبًا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من الغارم، فغضب السلطان وضربه بالسكين التي يحبسها في يده، على عادته، وهي في غمدها وضربه بها جملة وقال له: هكذا تقول لي، فيأدر إليه الوزير وأخذ بيده وأخرجه إطفاء لغيظ السلطان وقام السلطان إلى داره وقد اشتد وجع يده التي ضربه بها تم خرج وقال رده إلي فردّوه فاعتذر إليه وقال له: طيب نفسك علي فإني علمت ما قلت لي إلا الحق فقال له: يغفر الله لي ولك فانصرف". التبتكي، المصدر السابق، ص 269.

بلغت شهرته الأقطار، حين أقامته بتونس سمي إلى سمع السلطان الحفصي قول ابن الأبار شعرا فيه لخلافات سابقة فيه "طغى بتونس خلف سموه ظلما خليفة" فكانت نهاية ابن الأبار الحرق ومعه كتبه بعد امتحانه ثم طعنه بالرماح¹، ولا تعد هذه حادثة فريدة إذ أن النحوي ابن عصفور الإشبيلي لمجرد رده ردا جريئا على السلطان الذي قال: "قد أصبح ملكنا الغداة عظيما" فرد عليه: "بنا وبأمثالنا" فألقي في الجابية في يوم بارد على سبيل اللعب والتأديب لما لقي السلطان في نفسه فمات من الحمى بعدها².

وليس ببعيد عنه ابن سيد الناس اليعمري الذي قتل لأنه بلغ السلطان أبا إسحاق المريني أنه يبغض دولته ويتسبب زوالها، على ترجيح أنه كان يخدم خصمه أبا فارس خفية³، ورغم المشهد المظلم فيوجد بصيص نور من تقبل بعض النقد السلبي كما في حالة جد ابن قنفذ الذي بعد لوم السلطان لأهل قسنطينة رد عليه بلوم بني حفص وتقصيرهم في الدفاع عن المدينة⁴.

في المحصلة إن الدول المغربية التي عاش فيها مؤرخونا النقاد لم تكن مفتوحة تماما لتقبل النقد السياسي بجانبه السلبي، إذ عد انتقاصا -وقد كان في أحيان- وكانت ردودها زاجرة لأي قلم، ملزمة إياهم بالتأدب مع الملوك على ما جرت به رسوم العصر، ورغم ذلك فإنه كان يتسع صدرها أحيانا للنقد من المقربين وذوي المكانة أو نقد ما هو أدنى، عدا عن أنها لا تمنع كثيرا الحديث في دول الماضي إن لم تكن تشترك معها في بعض أصولها، فغياب النقد والمراجعة تماما في الدولة استبداد تام، والاستبداد التام مهلكة للدولة، الذي إن لم تعمله تراكمت هفواتها عليها معجلة بتهاويها.

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص418.

² الزركشي، المصدر السابق، ص39.

³ نفسه، ص44.

⁴ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص158.

الفصل الثاني:

معالم النقد السياسي في المدونة التاريخية الوسيطة
للغرب الإسلامي.

أولاً: النقد السياسي للسلطة والبلاط الموحد.

ثانياً: نقد السياسات الموحدية.

أولاً: النقد السياسي للسلطة والبلاط الموحي.

1- نقد الدعوة التومرتية:

أكثر ما أكثر فيه المؤرخون الحديث في تاريخ الدولة الموحدية دعوتها، لكونها فترة مليئة بالتحويلات على ساحة الغرب الإسلامي وغيرة بالأحداث والأفكار، بتفصيل لم يكن لغيرها على عدة أصعدة، منها الشخصية التي جاءت بهذه الدعوة، والأفكار التي حملتها، والأفعال التي قامت بها، الآثار المترتبة عنها، ولكل منها تقييمه ونقده المتباين بنين المؤرخين حلى حسب خلفياتهم واتجاهاتهم.

وأبرز ما في الدعوة الشخصية التي قادتها، والتي ادعت المهودية التي من شروطها النسب القرشي وهو مبتدأ النقد وأول الذكر، وقد صدقه المتقدمون فيما قاله عن نفسه من نسب كما ذكره البيهقي كاليسع والمراكشي¹، ويذكر صاحب المفاخر رواية مختلفة عن دخول جد ابن تومرت ودخوله مع جيش عقبة الفاتح²، ويظهر التردد والتشكيك عند ابن أبي زرع الذي أورد روايات عدة منها كونه دعي النسب³، ويلخص جميع الأقوال المتأخر صاحب الحل عن السابقين كابن رشيق وابن القطان⁴، والغالب على مؤرخي الغرب نقل النسب دون تصديق كامل أو طعن دائم لوازع ديني ربما وعظم أمر الطعن في النسب دون برهان.

اننقدت خصال هذه الشخصية إيجاباً وسلباً لما فيها من تعقيد كأي نفس بشرية، فتارة ينتقد إيجاباً من موالين له كابن القطان في ذكر شجاعته وكرمه وعلمه⁵، وأحياناً

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص136

² مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ص198.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص172.

⁴ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص103.

⁵ ابن القطان، المصدر السابق، ص90.

حتى بالاختلاق كالبيت الذي نسبه لابن عبد ربه في مدح المهدي¹، وقد يثني على ابن تومرت حتى من كان في اتجاه مخالف كاليسع الذي وصفه بـ: "قدم في الثرى وهمة في الثريا" وتركه في الدنيا دويًا²، بل حتى قد شبه همته وتأثيره بأبي مسلم الخراساني صاحب دعوة العباسيين³، ويذكره المراكشي مقيما سياسته "أسس الأمور وأحسن التدبير"⁴، وصنوه ابن أبي زرع ذاكرا علمه وفقهه وروايته الحديث وفصاحته، وانتقد سياسته: "إذا سياسة ودهاء ومكر وناموس عظيم"⁵.

وابن ابي زرع رغم ثنائه فإنه لا يغفل العيوب "سفاكا للدماء غير متورع" واستهتاره بالدماء لبلوغ غاياته، وأيضا في احتياله على المصامدة الذين سماهم الجهال حتى بايعوه⁶، فترتفع لهجة النقد السلبي شيئا فشيئا كما هي عند ابن عذاري الذي يرفض مهديته ويسميه المحرض على الخروج ومفرق الكلمة المنتظمة⁷، وهو المعيار الذي سيلزم ابن عذاري في جل انتقاداته.

وقعت عدسة النقد على أفكار وعقائد هذه الدعوة كونها مركزها ومركز هذه الدولة الفكري، وبين المتوافقين معها كالبيذق وابن القطان الرائي عصمة ابن تومرت⁸، ومن يراها تجديدا لمعالم الدين كابن الكردبوس وإظهارا لآياته وخصومهم مجسمين⁹، وبين من ينتقدها بالإيجاب عموما مع بعض المؤاخذات كابن خلدون الذي لم ينكر منها إلا

¹ نفسه، ص182. انظر الهامش إذ يُكذب المحقق نسبة البيت المذكور لصاحب العقد الفريد ابن عبد ربه القرطبي.

² اليسع، المصدر السابق، ص163.

³ نفسه، ص164.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص145.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص181.

⁶ نفسه.

⁷ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص340.

⁸ ابن القطان، المصدر السابق، ص91.

⁹ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص1317.

القول بالإمام المعصوم "لم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الإمامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم"¹.

ومن المؤرخين من شرع عصى النقد السلبي تجاه العقائد التومرتية، كابن عذاري والذي رغم قلة حديثه عن فترة الدعوة فإنه ينتقدها بأثر رجعي حين أزالها المأمون الموحي وسماها المعالم والرسوم الفاسدة²، ويظهر النقد أكثر عند عبد الواحد الذي شرح ما أتى به ابن تومرت "وافق المعتزلة في نفيها... وكان يبطن شيئاً من التشيع"³، على أن الأرفع لهجة كان اليسع في نقل الحافظ شمس الدين الذهبي عنه، ككون المغاربة منزهين لله تعالى عكس تسمية ابن تومرت لهم بالمجسمين واتخاذ ذلك حجة في تكفيرهم⁴، وأيضاً حيلته بالونشريسي التي كان اليسع أول المنبهين لها⁵.

والطبقة الرابعة من النقد الموجه للدعوة كانت لأفعالها وأتباعها، ولخصها ابن شبرين في نظمه لميزان العمل لابن رشيق "وعندهم على الدماء جرأة" وأيضاً طاعتهم العمياء "أولهم محمد المهدي إمامهم إن رشد أو غي"⁶، ومن ذلك في الدماء غدرهم بأهل تينمل الذي آوهم في رواية اليسع عند الذهبي⁷ وابن عذاري⁸، وهو نقد بالإخبار، ومثله عند المكناسي "فيقتل الرجال وتسبى النساء والذرية وتستباح الأموال"⁹، وفي

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص305.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص442.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص141.

⁴ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة، 2006م، ج14، ص382.

⁵ وفيها اتفاق ابن تومرت مع الونشريسي على ادعاء الجنون والجهل ثم إظهار تعقله كمعجزة من ابن تومرت. اليسع، المصدر السابق، ص157.

⁶ ابن شبرين، المصدر السابق، ص349.

⁷ الذهبي، المصدر السابق، ص379.

⁸ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص56.

⁹ ابن غازي، المصدر السابق، ص19.

الطاعة العمياء قول المراكشي: "فتنتهم به تشتد... لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك دون إبطاء"¹، وقد لاحظ المؤرخون هذه الطاعة العمياء وما أدت إليه من قتلهم أنفسهم حتى كما في حادثة دفنهم أحياءً ليدعي ابن تومرت إحياءهم ثم قتلهم لموت السر معهم².

أما الطبقة الخامسة من نقد الدعوة التومرتية فقد ركزت على آثارها، فقد أوصى ابن تومرت أتباعه بعده إن ظفروا بمرابطي أو تلمساني أحرقوه وهو ما أخبر به اليسع وحدث لاحقاً³، ويذكر بن عذاري ما سببته الدعوة من فرقة اجتماعية بن قبائل المصامدة وقتل الرجل أباه وأخاه وتكفير بعض⁴، وعند صاحب الحلل تسببت هذه الدعوة والثورة في اتصال الحروب وغلاء الأسعار وتوالي الفتن وعموم الجذب، وعدها أعظم فساد حل بالأندلس⁵.

كانت فترة الدعوة أي الثورة من 515هـ إلى وفاة ابن تومرت محل النقد الكثير متعدد الطبقات، إذ انتقاد هذه الفترة هو انتقاد لقلب الأفكار المؤسسة لدولة الموحدين، والأعمدة التي قامت عليها، فتكون حاسمة في النظر إلى ما يلحق غالباً، ومغنية في بعض الأحيان، إذ تبيين حسن أو قبح الأصل قد يغني عن الخوض كثيراً في الفرع.

¹ المراكشي، المصدر السابق، 143.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 182.

³ اليسع، المصدر السابق.

⁴ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 71. وهو أمر لم يعتبر في ذاته مشيناً ويلزمه فساد العقيدة والمبدأ وانتقاده أولاً كما فعل ابن عذاري، فالأمر نفسه نجده قد حدث في السيرة النبوية ويعد منقبة لا منقصة وتمايزاً بين الحق والباطل.

⁵ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 119، 120.

2- النقد السلطاني:

تقرر في الفصل السابق أن انتقاد السلطان ليس كنقد من دونه، للمكانة التي حضي بها وعواقب ذلك على تفاوت بين سعة صدور السلاطين، على أن نقد الماضين قد يكون أهون مع بقاء رهبة من المعاصر، ولم يغفل مؤرخونا أثناء تأريخهم نقد وتقييم السلاطين وتبيين فاضلهم من مفضولهم وتقييم سيرهم في رعيتهم.

يبلغ في مواضع محاولة ذكر فضل بعض من حكم لدرجة محاولة صنع هالة تقديسية بمحاكاة السيرة النبوية، وهو عين ما فعله البيهقي بذكر بيعة ابن تومرت عند الشجرة، وذكر الرايات التي أعطاها لكتائبه التي سيرها وهي بنفس ألوان ألوية رسول الله صلى الله عليه وسلم¹، وفي أول السلاطين عبد المؤمن حين قيل له أبسط يدك نبايعك كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة²، وعلى دربه المراكشي في نقله خبر مبيت أحدهم في فراش عبد المؤمن لتأمر قوم على قتله وهي مشابهة لمبيت علي مكان النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة³، وعلى هذا النسق صنعت هالة حول الحكام الأوائل رافعة مقامهم فوق غيرهم ممن حكم.

لم تمنع هذه الهالة من المؤرخين الأوائل النقد لأول السلاطين، وفي أول أمره بيعته، التي انتقدها ابن قنفذ مبطناً⁴، وبالإخبار ابن أبي زرع في ذكره اختلاف الموحديين بعد موت ابن تومرت وتحيل عبد المؤمن بأسد وبيغاء دربهما على طاعته

¹ البيهقي، المصدر السابق، ص 37، 37. وهي الأبيض والأصفر والأحمر، وهي مشابهة لألوان الرايات التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن العاص وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم.

² نفسه، ص 45.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص 171.

⁴ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 101. وعلق عليها مشيراً لغياب وتأخر بيعة الشيخ أبي حفص له.

وخذع بهم أشياخ الموحدين¹، على أن صاحب الحل يذكر القصة في سياق غير البيعة²، والنقد في هذه النقطة نقد في أصل حكم السلالة كلها من بني عبد المؤمن.

وعبد المؤمن غالب تقييمه عند المؤرخين ونقده إيجابي، عداك عن الموالين كصاحبه البيزق الذي أثنى عليه في مواضع عدة منها كإطلاق سراح بعض الأسيرات المرابطيات وحفظ العرض³، ويوافقه ابن القطان في تقييمه الإيجابي لسيرته⁴، وابن الكردبوس الأكثر حماسا في الثناء فجعله سببا لعزة الدين⁵، ولم يخالفهم عبد الواحد باستحسان صفاته الخلقية⁶ والخلقية⁷، واتفق على ذلك أيضا متأخرون كابن أبي زرع في تقييم فترة ولايته بالحسنة وجعله الأحسن في سلالته فروسية ودينا وعلما⁸، وصاحب الحل الذي زكى فيه إنزال الناس على قدر منازلهم وإكرامه لأعيانهم وعلماهم⁹.

ولربما لم يخالف في عبد المؤمن سوى ابن عذاري الذي قرع على عبد المؤمن حين قتل الناس عطشا في وهران بلفظة "عبد المؤمن قبحه الله"¹⁰، وقد يظهر ذلك أنه نقل من الأشيري وليس من ابن عذاري، لكن ذلك مستبعد كون الأشيري قد صار كاتباً

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 184-186. وهو ما قد يفسر انتقاد أحد أشياخ الموحدين لعبد المؤمن حين دخول مراكش بقوله "ارتد علينا عبد المؤمن، يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة". البيزق، المصدر السابق، ص 65.

² مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 149، 150.

³ البيزق، المصدر السابق، ص 49. ويذكر في ص 19 موقفاً آخر استحسنته من عبد المؤمن وردته الجميل لرجل من تلمسان أحسن إليه قبل توليه.

⁴ ابن القطان، المصدر السابق، ص 173-176.

⁵ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج 2، ص 1318.

⁶ المراكشي، المصدر السابق، ص 148.

⁷ نفسه، ص 169-170. وفيها أيضا رد عبد المؤمن الجميل لمن كان أحسن إليه من قبل.

⁸ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 203.

⁹ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 150.

¹⁰ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 99.

لدى الموحدين وقال شعرا في مدح عبد المؤمن¹، وفي الحالتين فإن ابن عذاري بنقله يكون قد تبنى الموقف، إذ أن انتقائه واختيار النقل عن وعي لا ضرب عشواء.

تتواصل لهجة ابن عذاري السلبية فيمن خلف عبد المؤمن، ابنه محمد المخروع الذي ظهر عليه السكر وأخلاق أسست لعزله²، وتولى مكانه أخوه أبو يعقوب الذي ينتقده إيجابا بعد بيعته وازدهار العدوتين في عهده³، وينقل في موضع آخر عن ابن صاحب الصلاة أنه "كان مثابرا على الجهاد مقيما للعدل"⁴، وابن صاحب الصلاة يجعل أحد معايير نقده الإيجابي له تبحره في علم "الإمام المهدي" قبل حسن سياسته⁵، أما عبد الواحد فإنه يركز على نقد الجانب الفكري لأبي يعقوب وسعة علمه وثناء ابن رشد عليه⁶، ويفعل المثل مع ابنه أبي يوسف بذكر مؤهلاته العقلية وخبرته قبل توليه الإمارة⁷، فكانت سيرته نقدها حسنا عنده عند توليه⁸، وأفضلهم نقدا له ابن الخطيب إذ جعله نجم بني عبد المؤمن وجوهرتهم⁹.

يواصل ابن الكردبوس في سنته بنقد حكام الموحدين إيجابا أبو يعقوب ويعقوب ابنه¹⁰، وابن أبي زرع رغم ذكره مآثر المنصور وجهاده إلا أنه لا ينسى له قتل أخويه وعمه، دون تعليق منه كأن الخبر لوحدته كافٍ، أو أن ما سبق من مآثر يغطي هذا¹¹.

¹ نفسه، ج3، ص131.

² نفسه، ص173.

³ نفسه، ص196.

⁴ نفسه، ص267. وفي هذا الموضع وبعده ثناء طويل على أبي يعقوب الموحدي.

⁵ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص165.

⁶ المراكشي، المصدر السابق، ص175.

⁷ نفسه، ص192.

⁸ نفسه، ص207.

⁹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص307.

¹⁰ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص1318-1320.

¹¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص218.

تبدأ الدولة الموحدية من بعد المنصور والناصر بفقدان بريقها وسطوتها، ويتوازي مع ذلك ارتفاع نسبة النقد السلبي لسياسات السلاطين التي أدت لذلك، ويلخصها ابن شبرين في نظمه لفترة العادل والمأمون، "أباح للسيف دماء الخلق وساسهم لكن بغير الرفق"¹، وأول اضطراب الأمر قبلهما كان بببيعة المستنصر صغيرا ويصفه ابن أبي زرع: "لا حكمة له ولا تجربة... كل من ولي بلدا عمل فيه برأيه"²، ويذكر الزركشي انفلات السلطة من بني عبد المؤمن وتغلب وزيره ابن جامع ومشیخة الموحدين³، غير أن صاحب الحل كان متوسطا فيه وذكر دعة أيامه وخمولها⁴، وينفرد الفاسي بذكره بإدمان الخلاعة وتفويض أمور دولته إلى السفلة⁵ فكان عهده نقطة تحول.

كان العادل ممن حكم بعد هذا العهد بعد تصارع مع عبد الواحد بن يوسف، ويقيم الفاسي دولته بأنها كلها فتن وتقاتل على السلطة ويرجع خراب عمران المغرب لها، ولخص سياسته بأن وصفه "مؤثر هواه على أمر دينه"⁶، ولا عجب أن يثني المؤرخون على المأمون الذي يليه بإسقاطه العصمة والمهدوية، فهو الشهم الشجاع... عند ابن الخطيب⁷، والعالم الأديب... عند صاحب الحل⁸، وهما ذوي الخلفية الأندلسية وهو المأمون الذي ولي الأندلس قبل تغلبه، غير أن روح ابن أبي زرع النقدية لا تخبوا عند المأمون الذي هو عنده "شهما حازما شجاعا... سفاكا للدماء لا يتوقف فيها طرفة

¹ ابن شبرين، المصدر السابق، ص 350.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 242.

³ الزركشي، المصدر السابق، ص 19.

⁴ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 162.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 243.

⁶ نفسه، ص 246-248.

⁷ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 223.

⁸ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 163.

عين¹، وذكر حفظه البخاري وسنن أبي داوود وعلمه، فكان الفاسي من رواد نقد السلاطين، ذاكرا ما لهم وما عليهم، لا يرى الأمر أبيضاً وأسوداً فقط، بل بتداخلاته وتعقيداته.

مع تهاوي الدولة وأقول عصرها يظهر نقد خاص لآخر سلاطينها، وذلك خصوصا لكون بأفولها كان بزوغ دول عاش بها النقاد، وآخرهم إدريس الواثق أبو دبوس الذي هو عند ابن شيرين شفرة ذات حدين "ذي البأس معا والبيّس"، ويختتم أرجوزته به ونقده وعصره الذي تميز بالفوضى "وذا أبو دبوس رأس الفتن" رغم تسميته بأنه من سراة الناس²، ونفس المنحى عند ابن أبي زرع إذ يثني على شجاعته ودهائه وما له من شيم حسنة³، لكنه يعود وينتقده سلبا لنقده عهده مع بني مرين لاحقا⁴، فكان ذلك سببا في إنهاء دولة بني عبد المؤمن وسقوطها النهائي.

نال سلاطين بني عبد المؤمن من النقد ما نالهم بالإيجاب والسلب، لكونهم الشخصيات الحاكمة والرئيسة المقررة ورأس السلطة، فعمد المؤرخون على تقييم السلاطين عند بداية عصورهم فذكروا سيرهم وما لهم من محاسن ومن مساوئ، فلم يعاملوهم كذوات فوق النقد، وقد ساعد كون بعض المؤرخين متأخرين وخارج حمى السلطة إن عاصروا أن ينتقدوا بحرية أكثر وأن تكون لهم نظرة شاملة أكبر، كذلك كون بعضهم من خلفيات لا توافق السلطة الموحدية لم يمنعهم من الإنصاف، فمدحهم أوثق إذ ليس لهم ما يتزلفون به.

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 249.

² ابن شيرين، المصدر السابق، ص 351. راجع المطلب الأول من الفصل الأول أين ناقشت لفظة سراة الناس ودلالاتها.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 256.

⁴ نفسه، ص 261.

3- النقد الحكومي:

دُون التاريخ الحكومي للسلطة الموحدية بشكل مذهل، لما فيه من تفاصيل عن شكل الحكومة الموحدية وهيكلها وأعضائها المتوالين من كتاب ووزراء بتوالي العهود والتعيينات وتاريخ الفاعلين فيها، وقد اخترت مصطلح الحكومة والنقد الحكومي رغم عدم ورود المصطلح في العصر الوسيط لأنه أشمل لما ذكر من تفاصيل، ومن كثرتها قد يحسب القارئ أنه أمام توثيق دواويني¹، الذي توازیه غزارة نقدية لا محيص.

تجلت الغزارة النقدية الحكومية على طبقات عدة، فمنها من كان في كيفية مبدأ الحكم والتداول عليه، وما كان في بناءه وهيكله، ومن كان في منهجه والسياسة فيه، ومن كان في تعييناته وأعضائه وتقييمهم، وما كان فيمن برز منهم وأشتهر.

انتقد المؤرخون بشدة غياب وعطب آلية التداول على السلطة في الحكم الموحدية، ويعبر عن ذلك المراكشي صراحة في ثناءه على إبراهيم بن أبي يوسف "وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر لو كانت الأمور جارية على إيثار الحق وإطراح الهوى"²، ولا أوضح منه وأدق في تحديد أصل الداء، إذ هي ظاهرة لازمت التاريخ الموحدية وانتقدت عرضاً كلما حدثت، فمنذ محمد بن عبد المؤمن الذي دفع أبوه به لتولية عهده رغم عدم أهليته فقط لكونه ابنه، فانتقد المراكشي فيه شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش³، وأمر مماثل في بيعة أبي يوسف ثالث السلاطين، الذي شاب بيعته شك وتنافس من إخوته وأعمامه، فلم تكن الآلية واضحة والعرش نهب لمن غلب.

¹ وقد فضلت كلمتي "توثيق دواويني" على نقحرة "أرشيف بيروقراطي" المعربة للغة أنقى.

² المراكشي، المصدر السابق، ص 227.

³ نفسه، ص 173.

يفصل المراكشي بشكل غير مباشر في توابع هذا الأمر وما ظهر من اختلاف في البيت المؤمني لما تخلل هذه البيعة من ريبة، فنازعه بعد مدة أخوه عمر وعمه سليمان فقتلها¹، ومحاولة أخيه أبو يحيى الانقضاض على الحكم حين بدى مرضه²، والفوضى البيعاتية مستمرة في بيعة محمد بن أبي يوسف الذي شكك المراكشي فيها لانحراف أبيه عنه في آخر أيامه³، ويظهر عيب التداولية الموحدية وغياب الضوابط فيها جليا حين تولي المستنصر وهو لم يجاوز اللحم وييدي ابن أبي زرع نقدا في ذلك وتوليه لكونه ابن الناصر فقط وتقديم أعمامه له⁴، وفي مواضع أخرى مماثلة كثيرة يقصر المقام عن ذكرها جميعا لكثرة تكرار الأمر في الدولة الموحدية.

اشتمل النقد الحكومي على طبقة أخرى من النقد كانت للطبقة الحاكمة المشكلة للحكومة، من أول هيكلها وتنظيمها إلى تصرفات بطانتها، وطبقات الموحديين التي رتبها ابن تومرت كانت محل اهتمام الجميع، إذ صنعت نظاما تراتبيا محدد التخصصات، ويرى نتائجها اليسع بانعقاد البر لهم أي الطاعة حتى استمعت لهم بقية عوامهم وهي الطبقة الأخيرة والأوسع في الأمور إذا قطعوا فيها⁵، لكن ابن خلدون المتأخر عنه والذي ربما لأنه عاصر أنظمة أكثر تطورا فإنه يرى عيوبها في النظام الموحي ووجود فجوات في المناصب لعدم استمکان الحضارة فيها⁶.

والبطانة نفسها كانت محل نقدٍ سلبي إذا أحدثت ما يشين، فابن عذاري على عادته في التشنيع على كل خارج عن الطاعة شاق للجماعة رمى أخوي ابن تومرت

¹ نفسه، ص 201.

² نفسه، ص 205.

³ نفسه، ص 238.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 242.

⁵ اليسع، المصدر السابق، ص 167.

⁶ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 299.

بالخبث والنفاق حين حاولوا إسقاط عبد المؤمن¹، وقبلها كان قد انتقدهما على ما فعلوه بقصور اشبيلية حين نزلوها فحرقوا سقوفها وعملوها اسطبلات لخيولهم²، وقد يكون هذا النقد بالإخبار تمهيدا منه على النقد الصريح لاحقا حين خروجهم، ولابن عذاري باع في التشنيع على من هو دون السلطان، كعامل الموحدين على لبلبة بالأندلس "الخشيس اللعين" بلفظه لإعماله السيف في أهلها بعد انتفاضة فيها³، وبنفس اللغة يقرع ابن أبي زرع طبقة الأشياخ بعد قتل عبد الواحد المخلوع فشبه حالهم بالأتراك مع بني العباس⁴.

لم تقيم الحكومات المتعاقبة من طرف النقاد بأدائها التسييري الإداري أو الحشدي العسكري أو الرخاء المعيشي بقدر ما كان عامل تقييمها العدل والتزام الشورية، فقد قدمت هذه القيمة المعنوية على القيم المادية في النقد الحكومي، وبهذا يبدأ ابن شبرين سرد سيرة الموحدين "ذي دولة شعارها ناموس" أي قانون "فيها استوى الرئيس والمرؤوس"⁵، فكانت هذه الخصلة أول ما ذكر لهم من فضائل، ويثني ابن عذاري على الرسالة التي أرسلت إلى الأشياخ والطلبة في عهد عبد المؤمن وما جمعت من "قوانين العدل والفضل والسياسة والرياسة"⁶.

تظهر طفرة عدلية يجمع المؤرخون على الثناء عليها في عهد المنصور الموحدي، ويربطونها بالنصر الذي حققه بالأرك لاحقا، فقد بدأ عهده برد المظالم التي فعلها العمال في أيام أبيه وإكرام الفقهاء⁷، ففي هذا نقد مبطن أيضا بأثر رجعي للعمال

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص132.

² نفسه، ص117.

³ نفسه، ص140.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص244، 245.

⁵ ابن شبرين، المصدر السابق، ص349.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ص118.

⁷ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص211.

السابقين عهد أبي يوسف، وأجاد المنصور حسب الزركشي في إقامة العدل بل والرقابة على قضاته واختبارهم وضبط أمور حكومته¹، وعند ابن عذاري فإن ذروة هذه الدولة في هذه الفترة هو الالتزام بالشرعية وإعمال الحدود²، وذلك عين العدل لا ريب، وتوجت أحسن الحكومات الموحدية بنصرها الشهير لأخذ المنصور بالشورى قبل المعركة أخذاً بسنة رسول الله صلى عليه وسلم فسامها ابن أبي زرع "الصفة المحمودة"³.

والطبقة الأخرى من النقد الحكومي هي شبيهة بالتوثيق الدواويني، إذ نجد ذكراً متواصلاً لحكومات كل سلطان وتعييناته ومؤهلات المعينين، وأحياناً ما يكون ذكراً بغرض تدويني محايد، بدأ هذا اللون في نكر وزراء عبد المؤمن البيهقي⁴، واليسع⁵، وابن القطان⁶، وصاحب الحل⁷، ولربما خلو النقد هنا كان بغرض التلخيص أو هامشيين بالنسبة لهم أو لكون سيرهم معروفة يمكن إدراكها في كتب أخرى كالتراجم.

على أن آخرين قد انتقدوا تعيينات عبد المؤمن، فابن الخطيب في ترجمته لابن عطية القضاعي نقده بأنه "محمود السيرة ناجح المساعي"⁸، وانفرد ابن صاحب الصلاة بالنقد الإيجابي للكاتب ابن جبل دون غيره من الكتاب ربما لميول ابن صاحب الصلاة

¹ الزركشي، المصدر السابق، ص15.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص273.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص223. ويمكن مقابلة هذا الموقف بالشورى قبل معركة بدر "يا رسول الله، أريت هذا المنزل، أمزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة" انظر غزوة بدر الكبرى في سيرة ابن هشام، المصدر السابق.

⁴ البيهقي، المصدر السابق، ص77. ولم يذكر أي نقد للوزراء المعينين.

⁵ اليسع، المصدر السابق، ص139. ومثله خال من النقد.

⁶ ابن القطان، المصدر السابق، ص208-212. مثل سابقه.

⁷ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص142، 151. ووزراء ابنه يوسف ص157، ووزراء المنصور ص159، ووزراء العادل ص163، وكلهم مجرد ذكر تدويني دون نقد.

⁸ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص128.

الأدبية وابن جبل شاعر¹، وكذلك أثنى على والد الأسرة المشهورة بالوزارة ادريس بن إبراهيم بن جامع الذي كان حسن السيرة مع عبد المؤمن²، ولا يسعه الثناء على الوزراء دون ذكر من كانت تربطه به صداقة، أبو حفص بن عبد المؤمن الذي وزر³، على أن له نقدا سلبيا للوزير عبد السلام الكومي بعد استنثائه بالغنائم⁴، وكان ابن أبي زرع قد انتقد بالإخبار عبد المؤمن في تحيته وزياره ابن عطية لتعيين قريبه عبد السلام⁵، والذي اغتاله مسموما لاحقا، وينتقد عادة قتل الوزراء عند عبد المؤمن المراكشي في قتل الوزير أبي جعفر الذي كان قتله أسبق من عبد السلام الذي عنده قتل خنقا⁶.

شابه منصب الوزارة عند عبد المؤمن المشي على الحبال التي ما نجى من النكبة فيها سوى اخر وزراءه ابنه أبو حفص، واستمر الأمر بعده بشكل مشابه عند خلفائه من بنيه، فبعد سقوط أبي يعقوب في شنترين بسبب خطأ المالقي خطيب الخلافة، فضل الأخير الهروب إلى ملك الروم خوفا من العقوبة وهو ما نغمه المراكشي على المالقي⁷، وقبل وفاة أبي يعقوب فإننا نجد نقدا إيجابيا لحكومته وبطانته من ابن أبي زرع لاحتوائها أمثال ابن زهر وابن رشد⁸، ونفس التزكية لصالح مؤهلات ولاته عند ابن صاحب الصلاة⁹، فكانت تعييناته محل ثناء لتقدمه ذوي الخصال والعلماء.

¹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص155.

² نفسه، ص168.

³ نفسه، ص169. انظر مطلب المؤرخ والسلطة في الفصل الأول.

⁴ نفسه، ص115.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص196. وقد قتل بعدها عبد السلام عند نكبته من طرف عبد المؤمن بالسم وهو سجين. انظر: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص173.

⁶ المراكشي، المصدر السابق، ص148.

⁷ نفسه، ص180 و181. وقد عمل المالقي على تصليح غلظته وخداع ملك الروم الذي آواه والتجسس لصالح المسلمين عليه.

⁸ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص206.

⁹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص309-310.

بتعاقب الحكومات والمناصب بزغت نجوم وزراء كثر في سماء الدولة، كانت لهم علامة فارقة، وما زاد بزوغهم إلا وزاد احتمال نكدهم، ولا أشهر في دولة بني عبد المؤمن من عائلة ابن جامع وزراءهم المتعاقبين، وزروا عهد عبد المؤمن، وعهد أبي يعقوب الذي وزر أبا العلي إدريس بن جامع الذي ينتقد ابن عذاري وزارته إيجابا لما وافقها في عهد أبي يعقوب من اتصال الخيرات¹، وهم من وزروا أيضا على عهد الناصر الذي هزم في العقاب ووقع اللوم على وزراءه وسوء مشورتهم ورأيهم التي أدت لهذه الهزيمة، فقد فصل ابن أبي زرع كيف ان الوزير ابن جامع خذل قواد الأندلس وطردهم وحجبهم رسائل تنبيهه من الخطر لم تصل الناصر²، وعلى قببهم فعلهم كما يصف ابن عذاري فإنهم لم يجدوا بدا من تسميم الناصر خوفا من أن ينكبهم³.

يشير ابن خلدون لتعاضم تدمير الناس من أسرة ابن جامع بعد تماديهم في التغلغل في السلطة بعد ذلك وما لحق من قلق، إذ يشير بعد وفاة المستنصر "وكان الناس على كره ابن جامع" قبل أن يقتل ابن جامع سنة 621 للهجرة⁴، ولعل أسرة ابن جامع قد شابته البرامكة بنكبة أخف، ولعل تغلغلها ونفوذها في الدولة قد مازال له نظير حتى في الدول المعاصرة، فمازال يتعاضم الاستبداد والتغلغل حتى تعاضم الكره، وقد يكون الحاكم صالحا وبطانته فاسدة فتُهوي به وبدولته كما كان في العقاب.

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص186.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص238، 239.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص380.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص338.

4- النقد العسكري:

لازم الجانب العسكري تاريخ الدولة الموحدية حتى طغى عليه وطبع به، فمسيرتها العسكرية منذ البداية قد كانت كثيفة ثقيلة وحتى بعد التغلب إلى الانهيار، فبجد السيف صنعت شوكتها وأخضعت مساحة لم تخضع لمغربي قبل، وبجد السيف انكسرت وتلاشت، وان في هذه المسيرة الحافلة ما يؤخذ بالحمد وما يؤخذ بالنقمة.

ليس بالسهل رصد النقد في التاريخ العسكري الموحي، فغالبا ما تجبر كثرة الاحداث المؤرخ على التدوين أكثر من التعليق، إلا أنه من الممكن تكشفه من خلال لهجته والألفاظ المضمنة خلال التدوين، وقد يمتدح المؤرخ فعلا عسكريا أو ينتقده ولا يتكشف موقفه إلا من خلال المعرفة بخلفيته ومشاربه وقراءة كلامه في سياقه، فالبيدق مثلا وبذكرة أحداث دموية كثيرة ما ذلك عنده إلا نقد عسكري إيجابي باعتبارها فتوحات وتصفية متمردين¹، ومثله ابن الكردبوس على أن لغة الثناء عنده أوضح، بل لغة شاعرية قد يحسب القارئ أنه بصدد الحديث عن فتوحات الخلفاء الراشدين²، وقد تكون في سياق اختيارات استراتيجية كتثمين اليسع اختيار تينمل مقرا لحصانتها ومناعتها³.

نال السلطة الموحدية نقد سلبي كثير رافق حملاتها العسكرية الكثيرة وضراوتها التي لازمتها، فمنذ مرحلة الدعوة والثورة التي كانت حركة عسكرية شرسة، حتى أن ابن تومرت عند وفاته أوصى بمتابعة الشراسة كما نقل اليسع عن إذا ظفروا بتلمساني أو مرابط أن يحرقوه⁴، وهو ما حدث بالفعل فقتل 70 ألفا من أهل تلمسان⁵، وهم في

¹البيدق، المصدر السابق، ص70-72.

²ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص1320، 1321.

³اليسع، المصدر السابق، ص169

⁴نفسه، ص177.

⁵نفسه، ص181.

نقل صاحب الحلل 100 ألف¹، على أن لغة اليسع وصاحب الحلل في هذا لم تكن بتلك الحمية كما كانت لغة ابن عذاري في مقاتل أهل وهران أين بلغ نقده ذروته²، وتظهر دموية الموحدين في العصر الأول حين حصار مكناس الذي دام أربع سنوات ينقل المكناسي حادثة حرقهم الناس الهاربين منهم إلى شجرة أحياء³، إلا أن المكناسي لم يظهر التأثير الكبير غير وصف الأمر بفتنة لاشتتار الحادثة ربما، وعند دخولهم مكناس نقل سفكهم الدماء وسبي الذرية والنساء ووصف ذلك بالتمادي والبلاء العظيم⁴.

غير أن أهمية مكناس ليست بأهمية مراكش ودخولها، وهي التي حاول الموحدون دخولها زمن ابن تومرت فنكبوا في معركة البحيرة وما حدث لهم من خسائر في رجالهم، استطاع ابن القطان وسط هذا إعطاء نقد إيجابي لشجاعة الموحدين أمام المرابطين المنتصرين وإشادة ببسالة عبد المؤمن⁵، وواتت الموحدين فرصة الانتقام من مراكش حين دخلوها بعد أكثر من عقد فكان عداد قتلى مراكش 120 ألفا حسب الحلل⁶، ويستغل ابن الخطيب في ترجمته لابن الصقر الخزرجي الحافظ الفقيه لذكر هذه الحادثة وما حدث من إباحة دم كل ذكر بالغ وبيعهم ببيع أسارى المشركين وكان منهم ابن الصقر لولا العفو عنه لأسترق⁷.

ما ارتوى سيف الموحدين حتى بعد سقوط المرابطين الكلي، فما واقعة قبيلة دكالة بالبعيدة، وهي التي لم تخضع لعبد المؤمن فوقع إبادتهم، وانقسم نقد هذه الواقعة وما

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 135.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 99.

³ ابن غازي، المصدر السابق، ص 20.

⁴ نفسه، ص 26، 27.

⁵ ابن القطان، المصدر السابق، ص 190.

⁶ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 137.

⁷ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 70.

شابهها من ما أحدثته الدولة في القبائل إلى ثلاث، أولها كما عند اليسع من نقد واستشناع واضح كما يظهر من ألفاظه¹، ونقد سلبي بالإخبار كما عند صاحب الحل من ذكر لعدد فرسانهم العشرين ألفا والمائتي ألف راجل ثم ذكر قتل أكثرهم وبيع من بقي منهم²، ونقد إيجابي يرى في هذا تصرفا حازما كما هو حال ابن القطان الذي نجده يعتز بقتل عشرين ألف من درعة وقتل جلاوة وكل من فيها مبررا ذلك بأنهم المردة الذين جرحوا ابن تومرت³، فلعبت الخلفية والانتماءات دورها هنا في التحسين والتقبيح.

لهذه الفترة الأولى أثر في نقد ما لحقها، فأبو يعقوب ثاني السلاطين انتقد بالإيجاب عند ابن أبي زرع لكونه متوقفا في سفك الدماء، ويبدو من هذا نقد مبطن لمن قبله لكون هذا ميزه عنه⁴، وجاهده في الأندلس الذي أودى بحياته كان محل ثناء صاحب الحل وتدويخه بلاد الشرك⁵ وبنفس اللفظ يثمنه ابن الكردبوس⁶.

وثالثهم ابنه أبو يوسف المنصور كان عهده كثيفا عسكريا فتتبع نقده بين سلبي وإيجابي، فمما يؤخذ عليه قتله لأهل قفصة قتلا ذريعا بلفظ المراكشي وهذه أسوارها بعد مبايعتهم الميورقي ابن غانية⁷، لكن إيجابياته العسكرية تطغى في كتب التاريخ ونقده، فيجمع ابن خلدون⁸ وصاحب الحل⁹ على حسن جهاده وإثخانه في بلاد الكفار، كيف

¹ اليسع، المصدر السابق، ص 183.

² مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 147.

³ ابن القطان، المصدر السابق، ص 225.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 205.

⁵ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 158.

⁶ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج 2، ص 1319، 1320.

⁷ المراكشي، المصدر السابق، ص 200.

⁸ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 325.

⁹ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 159.

لا وهو صاحب الأرك، وجعلها ابن شبرين ميزته الكبرى فأثنى عليه في الجهاد وأبيه¹، والأكثر نقدا ونظرا في أسباب هذا النصر كان ابن عذاري الذي كان نقده الإيجابي مفصلا ففصل في ذكر الإحكام العجيب والضبط لأحوال العسكر وحسن النظام²، فأتى نقده مؤسسا على أصول أحكم في الحكم على الشيء.

وعلى منواله ابن أبي زرع في نقد سلبي لهزيمة ابنه الناصر في العقاب، إذ بنى نقده له على اغتراره بعدده وكثرة جنوده التي لم تغني عنه شيئا³، غير أن سبب نقد المراكشي اختلف إذ أرجع سبب الهزيمة إلى اختلاف قلوب الموحدين بسبب الإبطاء في أخذ العطاء، إذ وجه نقده لطبقة أدنى من السلطان الذين لم يسلوا سيفا ولا شرعوا رمحا لأنانيتهم وأثنى على السلطان في ثباته رغم هذا⁴، والعقاب كانت ضربة قاصمة للدولة الموحدية وأهل المغرب والأندلس إذ يجعلها صاحب الحل لهزيمة العظمى⁵.

لم ترتقي الأحداث العسكرية اللاحقة لما كان قبل العقاب لا من ناحية الكثافة ولا النقد لتكون محل اهتمام كبير كما كان، وإنني أجد إمكانية النقد العسكري للسلطة الموحدية ممكنة بشكل أكبر مما كانت عليه قبل العقاب وبعده سواء وقت الدعوة أو بداية السلالة المؤمنية لو أراد النقاد ذلك، وإن الحدث الواحد منها كان بالإمكان نقده بصفحات لا جمل عابرة وعبارات مضمنة كما كان، أخذت مني الوقت الكثير للفصل فيها إن كانت نقدا ام لا واستخراجها.

¹ ابن شبرين، المصدر السابق، ص350.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص314.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص240.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص235 و236.

⁵ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص161.

ثانياً: نقد السياسات الموحدية.

1- نقد السياسة الدينية:

يختلف نقد سياسة السلطة عن نقد السلطة نفسها والبلاط في كون الأولى أكثر استمرارية ويتعلق نقد السياسة بالمنهج المتبع من السلطة بينما الثاني أقل استمرارية ويتعلق بتصرفات الأشخاص ويعتمد على مزاجيتهم وطباعهم أكثر، ونقد السياسة الدينية أقصد به نقد سياسات السلطة الموجهة نحو أهل العلم والدين، ورعاية مصالحه.

ففي رعاية الشؤون الدينية على مصطلحنا العصري نجد ابن الكردبوس ركز على هذه النقطة لنقد عبد المؤمن إيجاباً فبظهوره أعز الدين وقمع الباطل¹، وابنه يوسف الذي أوضح من الدين منهاجه²، ونقد ابن القطان كان أكثر تفصيلاً إذ أرجع ذلك لإنشاء طبقة الطلبة ورعايتها من طرف عبد المؤمن وفرض حفظ كتب التوحيد والموطأ وصحيح مسلم وما أجزله لهم من العطاء مما ساهم في رفع المستوى العلمي³، ووافقه فيه المراكشي من قبله في نقد سياسة عبد المؤمن الدينية إيجاباً وإيثاره أهل العلم⁴.

يحضر نقد المراكشي الديني عند تغير بعض السياسات الموحدية، منها عندما هم أبو يوسف على إحراق كتب الفروع، ورد عبد الواحد ذلك العمل الذي استنكره وهو المالكي بأن قصده كان محو مذهب مالك وإزالتها من المغرب مرة واحدة⁵، غير أنه ذكر له محاسن كعدم تصديقه بعصمة ابن تومرت التي لم يظهرها⁶، وثمن في عهده

¹ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص1318.

² نفسه، ص1319.

³ ابن القطان، المصدر السابق، ص178، 179.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص150.

⁵ نفسه، ص202.

⁶ نفسه، ص210، 211.

انتشار الصالحين وأهل علم الحديث وعظمة مكانتهم، فهو لم يجزل لهم فقط بل قام باستدعائهم من البلدان¹. على ان التغيير الأبرز في السياسة قد كان على عهد المأمون إذ أزال اسم ابن تومرت من الخطبة والسكة وصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيتاء الصدقات فكان هذا من جملة ما ثمنه ابن الخطيب في سياسته².

يتميز الجزنائي ببعض التفاصيل عن السياسة الموحدية الدينية بمدينة المؤرخ لها فاس، وينتقد ما بلغوه من غلظة على المؤننين كالمبالغة في اشتراط عفته لدرجة اشتراط وضع المؤذن عصبة على عينيه بالنهار، وما سبب ذلك من هيجات وفتن لاحقة³، وانتقد كذلك غلظة عاملهم على فاس وطلب إحضار الفقيه أبو محمد يسكر، التي صاغها الجزنائي في شكل منقبة لأبي محمد⁴.

وليس أبو محمد حالة فريدة، إذ للموحدين وأهل العلم تجاذبات، بين إكرام وامتحان، والنقد في هذا بين إيجاب وسلب، فكما ذكرنا محنة ابن الصقر الخزرجي وانتقاد ابن الخطيب لذلك⁵، ومحنة أبي الوليد بن رشد وهو وجده من أعلام مالكية عصره وما بعده، كانت محنته بسبب سلطاني عند المراكشي⁶، فنكبه السلطان لما رأى مما اعتقده قلة أدب معه وحطا من قدره، ويورد ابن عذاري سببا آخر هو التحاسد العلمي لا بسبب ذكر السلطان بشيء، فسعى به من كانوا ببطانته تفتيشا في كتبه⁷، والحقيقة أن نقدهما هنا كان خافتا وغلب عليه التأسف أكثر من الإنكار.

¹ نفسه، ص 202.

² ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 224.

³ الجزنائي، المصدر السابق، ص 53، 54.

⁴ نفسه، ص 57.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 70.

⁶ المراكشي، المصدر السابق، ص 224، 225.

⁷ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 333.

أسالت نكبة ابن رشد حبرا كثيرا عند المؤرخين وأكثر منها ما وقع مع أبي بكر بن العربي المالكي، فما اغفل ذكره الموالون لتراسه وفد الأندلس لبيعة عبد المؤمن، ولا غير الموالين لما شاب ذلك اللقاء وبعده، وعرف أبو بكر بالثناء على المرابطين ووصفهم بحماسة المسلمين ناصري الدين¹، ذلك قبل سقوط حكمهم، وإن هذا الموقف قد يفسر توجيه المكناسي² والزرکشي³ أصابع الاتهام للسلطة الموحدية بتسميم ابن العربي فور انتهاءه من البيعة في طريق عودته بفاس، على أن مؤرخين آخرين لم يذكروا شيئا من هذا كصاحب الحل الذي ذكر قصة تقرب عبد المؤمن لأبي بكر وسؤاله عن لقاء ابن تومرت للغزالي⁴، وأيضا ابن خلدون الذي ذكر وفاة طبيعة مع ذكره موت ابن أبي بكر بالخطبة أثناء دخول الموحدين إشبيلية⁵.

وفي المحصلة فإن الصورة الإجمالية للسياسة الموحدية الدينية كما رآها النقاد اعتمدت على سياسة شعرة معاوية، غير أنها وضعت في كثير من المواضع سيفها حين كان قد يكفيها سوطها وأخذت الأمور بغلظة، والحقيقة كما قلت سابقا أن النقد لم يكن بحدة في هذه المواضع المحصورة لعل أن السبب في ذلك عدم ثبوت بعض الأخبار المستحقة للنقد والترجيح الأكبر أن النقد قد اعتمد رؤية تقييمية شاملة وأوسع، فإن المؤرخ إن وازن بين التشدد مع المؤذن ونكبة عالم واحد وبين إنشاء طبقة من الطلبة ورعايتها رعاية كاملة وتقريب العشرات من العلماء لا ريب أن يتجاوز ويعتريه التأسف على التعسف أكثر الإنكار.

¹ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 140.

² ابن غازي، المصدر السابق، ص 27.

³ الزرکشي، المصدر السابق، ص 9.

⁴ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 148. وفي الهامش إنكار من المحقق لإمكانية هذه القصة والسؤال لعدم توافق

رحلة أبي بكر بن العربي ورحلة ابن تومرت زمنيا.

⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 313.

2- نقد السياسة العمرانية:

مما يعجب المرء منه خلال تفحصه المدونة التاريخية أهمية ومحورية العمران فيها، وهي إحدى الغايات في الدين من وجود الإنسان إذ يقول عز وجل: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾¹،² وأبرز تجل لهذا الاهتمام في المدونة التاريخية كان ما دونه ابن خلدون في مقدمة تاريخه، وإن كان معناه أوسع مما قد يخطر في الأذهان، فإن غيره من المؤرخين لم يهمل هذا الجانب بل وأطنب فيه بشكل مثير، وقد يدعم هذا الموقف المدافع الذاب عن المدونة التاريخية بكونها مدونة سلطانية فقط.

ورد النقد الإيجابي للسياسة العمرانية في المقام الأول بطريقة الإخبار، وذلك عن المشاريع العمرانية الكبرى وما دونها، إذ رأوا أن الخبر ينوب عن تفصيل النظر، فمن المشاريع الأولى المعجبة البستان الذي أقامه بعد المؤمن في مراكش بطول ثلاثة أميال وما فيه من فواكه وعيون كما استعجب صاحب الحل³، ويذكره اليسع قبل خروجه من مراكش وما يدره على الدولة من مداخيل وما سببه من رخس في الأسعار⁴.

تظهر التشديدات الكبرى بعد استحكام أمر الدولة في عهد السلاطين اللاحقين، كالمدينة الكبرى المبنية بجبل طارق والتي جاوز فيها بن صاحب الصلاة النقد بالإخبار مصرحا "لو عاينها المتقدمون من آل عاد بن شداد لأقروا لهم بالعجز..."⁵، على ما في نقده هذا ما يبلغ التقريظ فإنه يذكر بالإخبار أعمال أبي يعقوب العمرانية

¹سورة هود، الآية 61.

²انظر خطبة للشيخ البشير الإبراهيمي مفيدة في الموضوع عن كلمة الاستعمار المظلومة، محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ج4، ص380.

³مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص145.

⁴اليسع، المصدر السابق، ص182.

⁵ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص87.

الكثيفة وتشبيداته في الأندلس بقرطبة وإشبيلية واستجلاب البنائين والمهندسين¹، وتفصيل ابن صاحب الصلاة كثير في الأعمال التي بالأندلس حتى للمتأخرين بذكر أعمال بناء وإصلاح المساجد كمسجد ابن عديس بإشبيلية وإقامة الأسواق بجواره²، وللكاتب نمط في النقد العمراني هو الثناء على البنين لينتقد إيجاباً المشيد له كثنائه على صومعة هذا الجامع وتميزها³.

تعد مدينة المهدية الرباط وبنائها محط نقد عمراني إيجابي بالإخبار هي الأخرى، وهو ما قام به المراكشي القريب من عهد بناءها⁴، وبرغم استحسانه الأمر فإنه لم يبلغ درجة احتفاء ابن صاحب الصلاة بها وألفاظه التخميمة لها⁵، وليس النقد الحسن بالإخبار فقط في الإنشاء بل قد يأتي الثناء على ازدهار المدن القديمة كحال فاس التي يذكر الجزنائي أن ما بلغته فاس عهد المنصور والناصر من العمارة والرفاهية والدعة مالم تبلغه مدينة من مدن المغرب ويطلق في ذكر ما كان بها من منشآت⁶، وزيادات وإصلاحات في جوامعها كجامع الأندلسيين عهد الناصر⁷.

يرد النقد العمراني الإيجابي كذلك بشكل مباشر موجهاً للسياسة العمرانية المستحسنة لا بذكر الأعمال فقط، كالمراكشي حين يذكر همة عبد المؤمن في البناء والغراسة بمراكش في إطار عام هو حسن سياسته وتدييره⁸، كما يثنى على الموحدين في سياسة توطئة الطرق كفعل عبد المؤمن عند ابن أبي زرع وكان أول من وطأ

¹ نفسه، ص 166، 167.

² نفسه، ص 396.

³ نفسه، ص 390.

⁴ المراكشي، المصدر السابق، ص 195.

⁵ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 359.

⁶ الجزنائي، المصدر السابق، ص 43 و 44.

⁷ نفسه، ص 92.

⁸ المراكشي، المصدر السابق، ص 167.

الطرق من برقة إلى نول في السوس الأقصى كاملة¹، وسياسة المنصور أيضا في إصلاح المسالك ونصب الجسور عند ابن عذاري الذي يصف أثر هذه السياسة "كان الناس يمشون كأنهم في أحسن مساكنهم"².

اشتهر المنصور بنجاعة سياسته العسكرية إلا أن النقاد ما أهملوا نجاعته العمرانية، فالمراكشي يصف عادته بحب البناء وطول أيامه لم يخلوا من قصر يستجده أو مدينة يعمرها³، غير أننا لو أردنا إيجاد المقابل عند النقاد للوليد بن عبد الملك⁴ في بني عبد المؤمن، لا يكون ذلك غير أبي يعقوب المثني على سياسته بشكل كثيف، فابن الخطيب يذكره برغبته فيها⁵، والجزنائي يذكر اشرافه المباشر على الأوقاف والحبوس⁶، وابن صاحب الصلاة على عادته يذكر أثره العمراني الجميل في إشبيلية بل ويستزيد بأنه لم يتقدم لقبه من الفضل مثله ملك⁷، ويشابهه في اللفظ ابن عذاري والواضح نقله منه "فظهر له... والاثر الجميل مال لم يتقدم مثله قبله لأمير من الأمراء الخلائف ولا لملك من أهل الطوائف"⁸، وهي حالة من تأثر النقد الكثيرة بمصادره، غير ان النقل هنا قد يكون موافقة وتأكيد.

أما النقد السلبي للسياسة العمرانية الموحدية فإنه يحضر في مواضع عدة في سياق غير عمراني على الأغلب، بل كأثر جانبي للتحركات العسكرية، وبالأخص

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 198.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 288.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص 211.

⁴ وهو نجم بني أمية في العمارة وباني الجامع الأموي بدمشق والمشرف على بناء المسجد الأقصى حتى انتق المؤرخون على كونه عميد ملوك الإسلام في مجال العمارة لشدة اهتمامه وزهو عصره بها.

⁵ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 307.

⁶ الجزنائي، المصدر السابق، ص 79-81.

⁷ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 372.

⁸ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 222.

عند ظهور الفتن الموحدية الداخلية، فكعادته ابن شبرين في نظمه لابن رشيق يلخص الأمر بعد هذه الصراعات "أي حمى يا صاح لم يخرب"¹، ومثله ابن أبي زرع في ذكر خراب العمران بعد واقعة العقاب في إطار النقد الإيجابي لظهور بني مرين سلطته المعاصرة بعدها²، عاكسا مدى الخراب الذي حل، غير أن تخريبات عمرانية عسكرية أسبق قد حدثت كانت محل انتقاد، كتخريب عبد المؤمن سور فاس بعد دخولها وقوله "إنما الأسوار سيوفنا وعدلنا" كما نقل ابن هذه المدينة ابن أبي زرع³، ومؤرخها الجزنائي أيضا يذكر هذا الهدم نقادا بالإيجاب المرابطين الذين شيدوه أول الأمر والمرينيين وعمارتهم فيها لاحقا⁴، ونقد المراكشي هدم أسوار قفصة كما ذكر سابقا⁵.

تكون في بعض الأحيان السياسة العمرانية الفعالة محل نقد، وهو ما رآه ابن عذاري في سياسة المرتضى الذي عمر وعمل على البناء فيما أن الأولوية كانت لوركز جهده على الحرب لنجى، فأراها سياسة لأمره غير ناجحة⁶، محتكما في نقده للمآل النهائي، ومن الانتقادات الفطنة كذلك نقد المكناسي الذي حين نمت بلاده نسب الفضل أولا إلى همة أهلها أولا قبل السلطة⁷، أما حين تراجع عمرانها فإنه ينسبه لجور العمال ثم آثار واقعة العقاب⁸.

¹ ابن شبرين، المصدر السابق، ص 350.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 282.

³ نفسه، ص 189.

⁴ الجزنائي، المصدر السابق، ص 42، 43.

⁵ المراكشي، المصدر السابق، ص 200.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 545.

⁷ ابن غازي، المصدر السابق، ص 28.

⁸ نفسه، ص 31.

3- نقد السياسة الاجتماعية:

يرتبط النقد الاجتماعي غالباً بالعصر الحديث لكونه عماداً لأحد الاتجاهات الفكرية التي تتخذ منه أداة في قراءة الاجتماع الإنساني ورؤية التاريخ والحركة البشرية ونظمها، وإن كان قد طبقه معاصرون بشكل نقلي محاكي لما هو في السياق التاريخي الغربي، فإننا نجد النقد الاجتماعي قد مورس بشكل أصيل في مدونتنا التاريخية ذاتي دون تأثير خارجي، أعمل فيه نقد المجتمعات ونقد سياسات السلطة اتجاهها.

وقبل نقد السياسة الاجتماعية انتقد المؤرخون اجتماعياً المجتمع المكون للسلطة الموحدية من الأساس، فعبد الواحد يبدأ بدائرة أوسع بنقد عام للمغاربة وطبائعهم التي سهلت انقيادهم لابن تومرت وسفك الدماء وأورد قصة عن البكري¹ مضمونها أنها بلاد شر وقسوة²، وابن أبي زرع بدائرة أضيق ينتقد مجتمع المصامدة في بداية الدعوة لعجمتهم وعدم قدرتهم على حفظ بعض من القرآن حتى أحتال في ذلك ابن تومرت ليحفظهم شيئاً منه³، ويورد اليسع قصة طاعنة في أهل تينمل نعف عن ذكرها وهي في سياق ما حرضهم به ابن تومرت للثورة على ذلك الوضع⁴، ولم تسلم كومية قبيلة عبد المؤمن عن النقد إذ يصف المراكشي حالها القديم دون مجد أو عز قبل الملك⁵.

وكما أن المجتمع جزء من العمران وكلاهما مترادف متلاصق، فإن السياسة الاجتماعية ونقدها ارتبط كذلك بالحركة العسكرية، ويبيدي صاحب الحل الآثار الاجتماعية للثورة الموحدية "وتأججت نار الفتنة بالمغرب، واصطلى بحرها طلاب

¹ والمقصود هنا أبو عبيد البكري صاحب كتاب المسالك والممالك وقصة نقلها عن الإسكندر الأكبر وبلاد المغرب.

² المراكشي، المصدر السابق، ص 143.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 183.

⁴ اليسع، المصدر السابق، ص 161، 162.

⁵ المراكشي، المصدر السابق، ص 245.

العافية، ورضيها كل من ذهب إلى الفساد"¹، وكذلك من آثار سياساتهم فرقة اجتماعية كما نقل ذلك اليعس بقتل الأب ابنه والابن أباه والأخ أخاه²، ونقل ذلك عنه الذهبي فرآى رأيه ونقده، أما نقل ابن القطان عنه ذلك فإنه رآها لموقفه الموالي محمده.

وتنتقد السياسة الاجتماعية الموحدية بشكل مباشر وقصورها وتقديم السياسة العسكرية عليها فيما قاموا به بأعمال كان لها وقع كبير على المجتمع القبلي والحضري، منها وأشهرها مجزرة دكالة التي استشنعها جملة من المؤرخين منهم اليعس وبيع أولادهم ونسائهم³، وفي الحضرة ما حدث بمكناس من حروبهم وخلاتها وانتشار الموت جوعا وانتثار عقد الناس وجلاء بعضهم كما ذكر المكناسي وانتقد⁴.

مما انتقد في السياسة الاجتماعية هو التغييرات التي أحدثتها السلطة في المجتمع المغربي، كاستقدام أبي يوسف للجنود الغز الترك من مصر غير ان نقد المراكشي مثلا لم يكن لهذا الفعل بذاته ولكن لمسألة تقديمهم على بقية الموحدية في العطاء، مما أحدث اختلالا في التوازن الاجتماعي⁵، وتنتقد بعض التغييرات الاجتماعية بالإيجاب كعقد ابن عذاري لتصرف الرشيد الموحدية تجاه عرب قبيلة سفيان والخط وترتيب مضاربهم وتحسين أحوالهم فامتألت الأرض بهم فرحين⁶.

أما النقد الإيجابي للسياسة الاجتماعية فإنه يستهدف سياسات طويلة الأمد دامت دوام السلطان أكثر من مجرد تصرفات مؤقتة كما كان في النقد السلبي، وتركزت أهمها في صور من الرعاية الاجتماعية كسياسة متناقلة بين السلاطين المتعاقبين، فمنذ عهد

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 119.

² اليعس، المصدر السابق، ص 174.

³ نفسه، ص 183.

⁴ ابن غازي، المصدر السابق، ص 27.

⁵ المراكشي، المصدر السابق، ص 210.

⁶ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 461.

ابن تومرت في البدء الذي بوصف ابن القطان كان لطيفا مع الموحدين مؤدبا لهم، وتظهر توصياته الاجتماعية في خطبة وداعه¹، ويرى استمرار هذه الوصايا في عبد المؤمن ورعايته لطبقة الطلبة ومحاولته زرع الألفة بينهم لغربتهم وضعفهم²، وحتى المكناسي يقر للموحدين حسن معاملتهم لمن يقدم عليهم ولينهم في إيراد قصة أحد القراء في فاس اثناء حصارها ويثمن ذلك عليهم³.

ثمن ابن صاحب الصلاة سياسة أبي يعقوب الاجتماعية الذي عاصره، كموقف عفوه عن المساجين، وربط إصلاحاته الاجتماعية باليسر الاقتصادي الذي لحق بعد ذلك⁴، كما ثمن فيه موقفا آخر وهو إرساله مساعدات غذائية لإغاثة أهل بطليوس⁵، فكان حسن السياسة الاجتماعية بالعموم طوال عهده.

افتك أبو يوسف المنصور الريادة في النقد الإيجابي لسياسته الاجتماعية، مما ثبته من أمن للمجتمع عند ابن أبي زرع⁶، ويقدر له ابن عذاري بالإخبار رعايته الاجتماعية للأطفال بمراكش وبلغت ميزانية ذلك ألف ألف -مليون- ما بين ذهب وفضة⁷، وينقل المراكشي شهادته بهذا لا نقله، وأمره بثوب ومثقال ورغيف ورمانة لكل يتيم، وإخراجه الصدقات وما يأتي من نصف الغنائم إلى العامة⁸، لكن تتويج هذه

¹ ابن القطان، المصدر السابق، ص168، 169.

² نفسه، ص177.

³ ابن غازي، المصدر السابق، ص22.

⁴ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص266.

⁵ نفسه، ص435.

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص217.

⁷ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص336.

⁸ المراكشي، المصدر السابق، ص209.

السياسة كان في المستشفى الذي أقامه بمراكش وأسترسل المراكشي في ذكر ميزاتة، شاهد عيان عن أمور يصعب تتوفر في مشافي عصرنا¹.

يقول نقد السياسة الاجتماعية بنوعيتها بعد ما يلحق من عصور، سوى حالات قليلة كنقد ابن عذاري الحسن لفعل المستنصر بعد الكساد وفتح المخازن للمسلمين بثمان لأغنيائهم وبالمجان لفقرائهم²، وعدا عن ذلك فإن هذا النقد يخف حتى يختفي، قد يكون السبب الرئيس في ذلك ضعف السلطة الموحدية وتناقص سيطرتها لفرض سياسة اجتماعية فيقل النقد الاجتماعي في ظل بروز أصناف أخرى من النقد.

¹المراكشي، نفسه، ص209 و210.

²ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص382.

4- نقد السياسة الاقتصادية:

طوبى للمؤرخ أينما استؤمن وفى، فعدا عن كون وظيفته تطوعية في المقام الأول، فإنه ومع نقله وقائع عصره والماضي بأبعاد شتى، سياسية وعسكرية وفكرية واجتماعية، واقتصادية حتى، فإنه أفرد لكل ما مضى نقداً، والحق أن عقل المؤرخ موسوعي بممارسته التاريخ وخوضه في مجالات عدة وقدرته على تقييم الأفعال والسياسات فيها، ومنها الاقتصاد هاهنا.

ومن المؤرخين من كان شديد الاهتمام بتتبع التفاصيل الاقتصادية كالأسعار بالخصوص خلال مسير الجيش كابن صاحب الصلاة¹، ومنهم من كان عديم الاهتمام الاقتصادي ونقد سياسته كابن القطان الذي نقده الاقتصادي الوحيد كان للمرابطين رغم أن الجزء الأكبر من كتابه عن تاريخ الموحيدين².

يفتح نقد السياسة الاقتصادية الموحدية بالإيجاب والسلب معا عند المكناسي، إذ يذكر إزالة عبد المؤمن المكوس والمغارم على سكان جبل زرهون لمولاتهم له، لكنهم غرموا في العقود اللاحقة حتى سمي الجباة الجبل جبل الذهب³، وكانت مولاتهم الأولى في حصار مكناس التي يذكر المكناسي آثاره الاقتصادية المهولة بإخباره عن أكل اضطرار الناس لأكل خسيس الحيوان والهلاك جوعاً⁴.

انفرد المكناسي بكثير من النقد السلبي الاقتصادي للسلطة الموحدية دون غيره، ولم يسر مسيره سوى قليل كابن عذاري الذي انتقد ما ظهر من الغلاء المفرط في كل بلاد الغرب في سنة 637 للهجرة وأرجع ذلك لسببين قلة الأمطار وكثرة الفتن بسبب ما

¹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 352، 353. وهذه الإشارة من محقق الكتاب في هامش الصفحة.

² ابن القطان، المصدر السابق، ص 226.

³ المكناسي، المصدر السابق، ص 23، 24.

⁴ نفسه، ص 25.

كان بين أمراء الموحدين من الحروب والوقائع¹، فحمل السلطة المسؤولية المباشرة، لكن نقد المكناسي كان أكثف وأدق، وذكر ما حل بأهل مدينته من تضيق اقتصادي من عمال الموحدين ما ألجأ أهلها إلى الحرف بعد التملك الذي فيه تضيق من السلطة في بيع السلع المنتجة²، وعرض المكناسي ما رآه حلا لهذه السياسة الجائرة وهو ما قام به المكناسيون من مقاطعة بيعا وشراء بسبب جور العمال، وتراجعت السلطة الموحدية عن جورها فكان في المقاطعة والإضراب صلاح لحال أهل مكناس³، ويعد هذا الموقف واستحسان المكناسي له من المظاهر الأولى للإصلاح الاقتصادي ووسائله، إذ شخص المشكلة وأرشد إلى اقتراح يحلها.

وللسلطة الموحدية سياسات محمودة كانت محل نقد إيجابي، وعلى زهو عصر أبي يعقوب العمراني فإنه قد رافق ذلك حسن سياسة اقتصادية أيضا، فثمن فيه ابن أبي زرع جباية الخراج من المغرب والأندلس دون مكس ولا جور، فكانت نتيجة ذلك كثرة الأموال⁴، ويؤكد ابن عذاري ذلك "زادت المخازن وفورا ودرت الخيرات على الناس درورا"⁵، وينقد المراكشي حسن سياسته بتوحيد المغارب دون معاند واتساع الخراج بما لم يكن لملك قبله ولا بعده⁶، فكانت له أحد أهم حسناته استغناء الناس في عهده⁷، ويأتينا نقد المراكشي المستحسن مدققا في سبب اتساع الخراج وانفراد أبي يعقوب بهذا الكم وهو استعانتته بالخرائط فلم يمتنع عنه دينار⁸.

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص483.

² ابن غازي، المصدر السابق، ص27.

³ نفسه، ص28.

⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص206.

⁵ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص196.

⁶ المراكشي، المصدر السابق، ص186.

⁷ نفسه، ص175.

⁸ نفسه، ص187، 188.

ولخلفه المنصور نقد إيجابي عند ابن عذاري وملاحظة لم يوردها غيره وهي رفع المنصور لقيمة الدينار الموحد وتسويمه، فوصف ذلك بـ "المناظر الفخمة الجارية"، وهو تفصيل وتتبع اقتصادي لم يتفطن له غيره من النقاد¹.

والاقتصاد الوسيطي مهما بلغ من الأهمية فإنه كان تابع لعوامل وسياسات أخرى ومازال، ولم يكن المتحكم فيها، فلم تكن السياسة الاقتصادية ونقدها محل تقديم من المؤرخين لعلمهم بتبعيتها وكونها الأثر الظاهر لما سبق نقده من سياسات، ومع هذا فإنه قد تميز في هذا الموطن من النقد مؤرخون كالمكناسي والمراكشي وابن عذاري، وغاب عنه آخرون كابن صاحب الصلاة رغم اهتمامهم بالتفاصيل الاقتصادية.

¹ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص284.

الفصل الثالث:

نقد النقد وقضايا تاريخية في المدونة التاريخية الوسيطة للغرب الإسلامي.

أولاً: أنماط وظواهر نقدية في المدونة التاريخية.

ثانياً: ما وراء النقد.

أولاً: أنماط وظواهر نقدية في المدونة التاريخية.

1- النقد العكسي الدفاعي:

إن كان النقد السياسي عملية فحص ومحاكمة لإصدار حكم على أفعال السلطة وسياستها، والنقد الموجه للسلطة بنوعيه بمثابة مرافعة المدعي، فإننا نلاحظ ظاهرة في المدونة التاريخية أين بدت مرافعة أخرى تصدت لذلك النقد آخذة هيئة المحامي في وجه النقد السلبي خصوصاً، محاولة رده وتحصين الموكل عليه، ألا وهو السلطة الموحدية، بطرق عدة دفاعية وهجومية، وهو ما يعد أيضاً مرحلة أولى مبكرة من نقد النقد وتقييمه.

وقبل الدخول في النقد العكسي المباشر وجب التنبيه لبعض الطرق النقدية العكسية المبطنة، التي لا تظهر لكنها تضرر والهدف الأول منها بث أرضية للنقد الدفاعي عن السلطة الموحدية، ومنها النقل المقتطع المتصرف فيه، ومثل ذلك في نقل ابن القطان عن اليسع الذي كانت لهجته النقدية لقصة الونشريسي وحيلته أعلى، بل وفي نقله تصرف بإضافة ألفاظ تفخيم كالإمام المهدي التي لا يقر بها اليسع¹، ونفس الأمر قام به ابن القطان أثناء مجادلته وسرده الأدلة في شرعية ثورة ابن تومرت، نقل حديث من جاهدهم بيده فهو مؤمن، لكنه افتعل جرماً كبيراً واقتطع من الحديث لفظة "فمن جاهدهم بلسانه... وقلبه"²، والتي قد تكون حجة ضد ابن تومرت ومبينا أنها الطريقة الوحيدة للتغيير³.

¹ اليسع، المصدر السابق، ص173.

² والحديث تقدم ذكره كاملاً في الفصل الأول. مسلم، المصدر السابق، ج1، ص69.

³ ابن القطان، المصدر السابق، ص100. وقد حاولت إيجاد العذر لابن القطان والبحث عن نسخة من الحديث بالشكل الذي أورده لكنني لم أجد.

ولون آخر من النقد العكسي المضر هو النقد الاستباقي، الذي يكون بنقد استباقي لخصوم السلطة الموحدية، فلا يرى بدا من انتقاد فعلها بهم لاحقا، وقد يكون ذلك بوعي من المؤرخ أو انسياقا وراء الرواية الرسمية ومصادره، كنقد المراكشي للفواحش الظاهرة في مجتمع المرابطين وسيطرة النساء على السلطة قبل ظهور ابن تومرت¹، ومثله ذكر ابن الكردبوس المرابطين بأوصاف شنيعة²، واستباق المراكشي أيضا نقد الخارجين على الموحيدين ووصفهم بدعاة الفتنة وشق الجماعة³، قبل فتك أبي يعقوب بهم، وأقسى منه لهجة ابن صاحب الصلاة في ذكر أمير العرب بإفريقية محرز بن زياد الخارج على الموحيدين وافتاء إيه "الخبيث المخبث جرثومة الضلالة والعناد الكذوب الطاعة والانقياد"⁴، فيتم للكاتب بهذا الأسلوب نقد عكسي استباقي والتقديم لسقوط أي مأخذ لاحق على السلطة الموحدية.

ومثل النقد الاستباقي فإننا نجد صنفا آخر وهو الدفاعي الاستباقي، وبه يهدف المؤرخون المواليون صنع هالة تقديسية حول الشخصيات الموحدية، مؤكدة على عصمتها أو كونها موفقة إلهيا على أقل تقدير، كمحاولات إثبات العصمة لابن تومرت ونسبة كثير من الكرامات عبد المؤمن وتقل مع تلاحق بنيه.

أما النقد العكسي الدفاعي المباشر فقد تصدر له ثلاثة من أعلامه، منهم العميد ومنهم الرائد ومنهم المتأخر، فعميدهم -أي أولهم- البيذق، الذي عايش انتقادات مباشرة لجماعته وأصحابه وعايش نقدها العكسي الذي تصدر له ابن تومرت نفسه ضد نقاده الذين سموه خارجيا فسماهم مجسمين⁵، ويتصدر البيذق للدفاع عن بعض ما

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص140.

² ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص1316.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص185.

⁴ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص72.

⁵ البيذق، المصدر السابق، ص38.

شاب حملاتهم العسكرية كقتلهم قبيلة كزولة الموالية لهم بأنهم كانوا ينوون الغدر بالموحدين¹، وفي حالات أخرى فإنه يدافع بعد ذكر مذابح وراء مذابح دموية مبررا ذلك بأنهم مخطون²، كما أنه عميد في النقد الاستباقي بذكر ما على الملتمين وكذلك ذكره أمو الثوار على عبد المؤمن³، والظاهر هنا من نقده الدفاعي والعكسي أن انحياز البيذق لم يساعده في صياغة نقد عكسي محكم يقنع الطرف المحايد بل للمنحاز لهم من بادئ الأمر فقط.

وأما الرائد والمجتهد في النقد العكسي فإنه ابن القطان لا ريب، وهو الذي ذكرت خلفيته ومشاربه كما كان في الفصل الأول فإن ذلك يتوافق مع اتجاهه هذا المنحى، والحق أنه مثال متكامل على النقد العكسي بانتهاجه كل ألوانه أساليبه، فمن رسم صورة تقديسية بذكر خوارق ومواقف عصم فيها ابن تومرت من القتل⁴، ونقله المقنطع أيضا، عدا عن إجادته في الجدل وشرعنة الثورة الموحدية وسرد الأدلة⁵.

لكن الذي جعل ابن القطان رائدا هو تناوله النقد الموجه للسلطة وتحليله ومحاولته تنفيذها، فخصص فصلا لاستعراض مآخذ المرابطين على الموحدين ليخوض في تحليلها ودحضها بعد ذلك مبينا خطأ هذه التهم⁶، بل ويغوص بشكل أعمق في الجدل العقائدي ويذود عن دعوة الموحدين مستخدما صيغة المتكلم مثبتا انتماءه لهم⁷، فكان

¹ نفسه، ص 57.

² نفسه، ص 70-72.

³ نفسه، ص 82. وفي ص 86 نفس الأسلوب بخصوص الثائرين في الأندلس.

⁴ ابن القطان، المصدر السابق، ص 91-93. وذكر مواقف عدة عصم فيها في الإسكندرية وفي تونس وفي بجاية.

⁵ نفسه، ص 99، 100. وفيها جملة من الأدلة التي اعتمد عليها ابن تومرت وجملة من الدعاية المضادة للمرابطين.

⁶ نفسه، ص 67.

⁷ نفسه، ص 98.

مدركا لما وجه لهم من نقد وطور أساليب أحسن من التي رد بها البيهقي، والناظر في نقده العكسي يرى مدى تفصيله في ذلك.

وثالث النماذج المرافعة بالدفاع في مواضع عدة، ومتأخرهم، ابن خلدون، في موقف متميز عن سابقه، فإن البيهقي واضح الانحياز ونقده العكسي موجه لمن هو في صفه، وابن القطان الذي حاول إيراد كل ما ورد ورده، لكنه برغم ذلك انتمأه واضح، فإن أبا زيد الحضرمي يتقدم كمحام محايد، أخذ بالدحض من أول النقاط وأعماها، نسب ابن تومرت المثار حوله الشكوك من المغاربة والمشاركة، فيصدقه في النسب العلوي ويرجع تشكيك الفقهاء في نسبه بسبب حسدهم له وضعف رأيهم ويمضي في ذكر محاسنه حتى يسميه الإمام المهدي صراحة¹، وهو موقف الدولة الحفصية منه آنذاك، إلا أن ما يلي من محاججات يوحي أن الموقف عن ميل لا مجرد تبنٍ.

يصور ابن خلدون وهو الأشعري دعوة ابن تومرت في سياق صراع عقائدي، وشيوع التجسيم عند أهل المغرب ومنهم حكامهم فكان اختيار ابن تومرت الفقهي تكفيرهم²، وهو الأمر الذي رده الذهبي في نقل عن اليسع وحاجج خلافه³، ومن أوجه النقد الدفاعي يورد أبو زيد ابن خلدون أن مذهب ابن تومرت في تكفيرهم هو أحد قولي الأشعرية⁴، جاعلا اختياره في إطار المحتمل نافيا عنه الغلو أو الشذوذ عن السائد، ويتضح ميل ابن خلدون إلى الحركة الموحدية في لهجة قلمه وهو يسرد وقائع ظهورهم وما ضحوا به، ويبرئ إمامهم من أي مطمع لبيت شعري ما الذي قصد بذلك إن لم

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص35.

² نفسه، ج6، ص359.

³ الذهبي، المصدر السابق، ج14، ص382.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص303.

يكن وجه الله¹، فانتهمى ابن خلدون في النهاية لنفي كل بدعة أو تهمة ألصقت بابن تومرت سوى العصمة التي لم يستطع التحلل منها².

يوصل ابن خلدون موقفه الدفاعي حتى في موت ابن تومرت، منتبها إلى الانتقادات التي وجهت إلى الطريقة التي بويغ بها عبد المؤمن بعد إخفاء خبر موت ابن تومرت³، وابن خلدون هنا قد خالف موقف بقية مؤرخي العصر الحفصي بالتشويب في بيعة عبد المؤمن، فالظاهر من ميله ونقده الدفاعي والعكسي أنه ذو منبع مذهبي عقدي أكثر منه تبين لموقف سلطة زمانه.

إننا نجد النقد العكسي الدفاعي قد تركز في غالبه على فترة الدعوة، وهو راجع كما ذكرنا في إيراد نقدها لأنها فترة حافلة بالأحداث وفترة مؤسسة إن ثبت نقدها السلبي لم يلزم الناقد الإكثار فيما بعدها، وإن نجح النقد العكسي في المرافعة عنها لم يلزم المدافع الذاب عما بعدها كثيرا.

¹ نفسه، ج 1، ص 36.

² نفسه، ج 6، ص 305.

³ نفسه، ص 305، 306.

2- الندرة في نقد السياسة الخارجية:

إننا لو همنا بالكتابة عن النقد الأدبي لا السياسي للسلطة الموحدية في المدونة التاريخية للغرب الإسلامي لوجدنا من نقد شعر ولغة السلطة والمتقربين منها ما يسد مبحثا لا مجرد مطلب، وما أورده ابن عذاري وابن صاحب الصلاة من أشعار ذلك العصر خير شاهد، غير أن ذكر السياسة الخارجية للدولة الموحدية قليل إلا في سياق الحروب، ونقد تلك السياسة أقل يعد على أصابع اليد.

كان عبد الواحد المراكشي الوحيد الذي نقل أخبار خارجية للدولة الموحدية ونقد بعض منها وتقييمه، فذكر السطوة التي كانت لأبي يعقوب على الممالك المجاورة كملك صقلية الذي كان يخافه ويرسل له الهدايا ليهادنه¹، وابنه أبو يوسف صاحب الأرك الذي عمل ملوك النصارى على استرضائه ومهادنته وذلك كنتيجة لسياسته العسكرية في المقام الأول فهادنه لمدة عشر سنين²، كما أن له نقد سلبيا لتهاونهم واستخفافهم بأمر ابن غانية بجزيرة ميورقة الذي تطور إلى خطر كبير لاحقا³.

ولعبد الواحد نقد إيجابي لمسايسة⁴ الموحدين لمن كان خصما لهم سابقا وحسن معاملتهم، كإحسان عبد المؤمن بملوك الحماديين والزييريين بعد سقوط ممالكهم في يده، ويفرد المراكشي بابا كاملا في حسن معاملة أبي يعقوب لملوك شرق الأندلس الذين غلبهم⁵، وحتى يحيى بن غانية عند استسلامه هموا بإكرامه⁶، ويمكن أن يكون النقد

¹المراكشي، المصدر السابق، ص185.

²نفسه، ص207.

³نفسه.

⁴واخترت هذا اللفظ بدل لفظ دبلوماسية لكونه أصيلا والثاني نخرة.

⁵المراكشي، المصدر السابق، ص187.

⁶نفسه، ص233.

الإيجابي هنا مفاضلة ومقابلة بصنيع المرابطين بملوك الأندلس ومحنة المعتمد بن عباد الشهيرة ملك طائفة إشبيلية ونفيه وحبسه في أعماق حتى موته.

يمكن حصر أسباب ندرة نقد السياسة الخارجية رغم إمكانها في أسباب عدة، أولها: المركزية الغربية المغربية عند الكتاب، إذ أن نظرتهم إلى الدولة وتاريخها كانت منحصرة في داخل حدودها وروايتهم عنها كانت منحصرة تبعا لاختيارهم هذا المسار في تدوين التاريخ الموحد، ولا ترى للعوامل الخارجية تأثيرا كبيرا مهما لإطالة فيه ونقده لاحقا، ولا ينفك من قيد هذه المركزية إلا من غادر وترحل ورأى العوالم الخارجية فلم يخضع لسلطان الإقليم، ومثال ذلك عبد الواحد الذي نقل لنا انتقاداته النادرة.

ثانيها: غلبة صبغة الصراع العسكري على العلاقات الخارجية فطويت السياسة الخارجية في غالبها وانضوت تحت السياسة العسكرية ونقدها، مما يصعب الفصل بينهما، سوى في أوقات السلم والتي لا تحظى باهتمام القلم.

ثالثها: هو تقدم عصر كثير من المؤرخين ذوي النظرة الواسعة إلى المؤثرات الدولية كاليسع، الذي وإن تأخر زمنه مع خبرته بدواليب الحكم داخل المغرب والأندلس وخارجه كان ليورد نصوصا ونقدا ذا وزن.

رابعها: قلة المصادر المساعدة على توفير الإدراك بالسياسة الخارجية للسلطة الموحدية لدى مدوني المدونة التاريخية الغربية، ومثال ذلك غياب ذكر وقائع مراسلات صلاح الدين والمنصور، إذ توفرت المعلومات عن هذه المراسلات لدى مؤرخي المشرق الذين هموا بتوجيه انتقادات بناءً عليها¹ في حين غابت المعرفة لدى المغاربة والأندلسيين عن خبايا سياسة الدولة الموحدية الخارجية سوى القليل مما بدى لهم.

¹ انظر مثلا نقد هذه الواقعة عند: ابن كثير، المصدر السابق، ج16، ص687.

3- النقد العمراني في التاريخ المدني:

يشكل صنف تاريخ المدن قسما كبيرا من المدونة التاريخية الوسيطية عموما وتاريخ الغرب الإسلامي بالعموم، فإن الانتماء لمدينة كان محفزا على الإحاطة بتاريخها، وهو ما أقر به صاحب الإحاطة، لسان الدين ابن الخطيب، حيث نجده في مقدمة كتابه ذكر جملة من ذوي العلم بالتاريخ ممن ألفوا في تاريخ مدنهم، وأنه ماض على دربهم مدون تاريخ مدينته رمانة الأندلس غرناطة¹.

وخلال اختيار المصادر الموحدية كان لزاما اشراكها وتفحص النقد فيها، عدا عن الإحاطة منها جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس للجزنائي، والروض الهمتون في أخبار مكناسة الزيتون لابن غازي المكناسي، والمؤلف الضخم الشهير الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع، وقد حوت هذه المؤلفات كما لا بأس به من النقد السياسي بأصنافه بالرغم من كونه ظاهريا خارج تخصصها وكونها تاريخا جزئيا لا عاما مهتما بسياسة الدولة كلها ومسارها العام.

والملاحظ في هذه المؤلفات نمط تشابهت فيه كلها وامتد حتى لغيرها، ألا وهو التركيز على نقد السياسة العمرانية، فالجزنائي مثلا في جنى زهرة الآس كانت الانتقادات المرصودة عنده أكثر من نصفها عمرانية سلبية وإيجابية، وكان يورد حتى تفاصيل دقيقة فيما يخص الإنجازات العمرانية كزيادات الناصر في جامع الأندلسيين ويطيل فيها صفحات²، بينما الأحداث الموحدية خارج مدينته وان عظمت كان أقصى ما تحتله من كتابه فقرة.

¹ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص6.

² الجزنائي، المصدر السابق، ص92.

والمكناسي كذلك إذ أن فيما رصد له من نقد تركز غالبه على الجانب العمراني ورافقه كذلك نقد اقتصادي، أما نقده في بقية المعالم النقدية فإنه في حالات فريدة منفردة، وتكون مرتبطة بالوضع العمراني كذلك كنقده للسياسة الاقتصادية وتغير كسب المكناسيين من التملك إلى الحرف¹.

يخف نقد السياسة العمرانية عند ابن الخطيب وأبي زرع بشكل نسبي أقل لما يعادل أقل من الثلث مما رصد عندهما، ويرجع ذلك لكون أنهما وبالرغم من تصنيفهما بتاريخ مدني إلا أن محتوَاهما كان أوسع وأعم، فالناظر لفهرس الأماكن في روض القرطاس² يرى عددا كبيرا من المدن الأخرى غير فاس ومدى شساعة الرقعة الجغرافية لتاريخ ابن أبي زرع، وبالرغم من ذلك فقد أورد انتقادات كثيرة فيما يخص عمارة فاس بالتحديد، وأما ابن الخطيب فيعد من صنف التراجم المدنية، إلا أنه تمكن من انتقاد السياسات بقدر ما سمح له صنف كتابته وكان للعمران حظ كبير منها.

والتفسير العام لظاهرة النقد العمراني في التاريخ المدني هو أن التاريخ متمحور في هذا اللون من التأريخ حول الحاضرة وعمارتها وتاريخها، لا كبقية التواريخ المتمحورة حول تاريخ الدولة أو الإقليم كله أو تاريخ بشري عام، فمن الطبيعي كون العمران نواة هذا الصنف وتأريخه مقصده الأول أن يكون نقد السياسة العمرانية للدول المتعاقبة محل الاهتمام الأول.

¹ ابن غازي، المصدر السابق، ص27.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص484.

4- النقد المريني بعد العقابي:

تعيش الدول أحداثا مفصلية تكون دافعا في تهاوي مجدها وصعود مجد عصابة أخرى مشكلة دولة، كقول المتنبي، بدا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد، وكقول الشافعي، إذا هبت رياحك فأغتنمها، ومصيبة العقاب كانت من مصائب دول الإسلام المشهودة في التاريخ الإسلامي كله لا الموحي فقط، وفيها هبت رياح دول عدة ظهرت بعدها في المغرب والأندلس.

وكائنة العقاب هي التي حدثت في عهد محمد الناصر الموحي سنة 609 للهجرة خلال حملة الأخير في الأندلس محاولا فتح ما استعصى من الحصون فأستكثر الأدفنش بالروم مستغلا أخطاء الموحيين التخطيطية فكانت الهزيمة الكبرى على المسلمين كما يصف المراكشي رغم كثرتهم وضخامة عدد جيشهم¹، وكان لهذه الواقعة الأثر الشديد بوصف صاحب الحل أنها أفنت أهل المغرب والأندلس².

والناظر في السردية الرسمية للدولة المرينية يرى سردا بصعود وهجرة بني مرين من الزاب ودخولهم المغرب الأقصى بعد واقعة العقاب أين حل الخراب بالمغرب بعد بداية انفراط عقد الدولة الموحدية³، بينما المتأمل في النقد الذي وجه من طرف المؤرخين الذين عاشوا في ظل هذه الدولة الصاعدة يلاحظ توافقا مع السردية وتضاعدا في النقد السلبي ملحوظا بعد كائنة العقاب، على غير ما كان قبلها من تناقص في النقد للسلطة الموحدية، إذ بعد العقاب وظهر السلطة التي يوالونها، أصبحت السلطة الموحدية بمثابة سلطة معادية، مما شرع الباب أمام النقد تماهيا مع الرواية المرينية.

¹ المراكشي، المصدر السابق، ص236.

² مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص161.

³ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، ط1، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص24.

غير أنه لا يسعنا الإنكار أن العصر الذي لحق بعد العقاب لم يكن كسابقه، وما تبعه كان انحدارا واضطرابا مما وفر مادة خصبة للنقد السلبي، إلا أن المفارقة أن المؤرخين من خارج الحيز المريني لم يكن تصاعد لهجتهم النقدية السلبية كما كان لدى من هم داخله، وهو ما يعزز أن النقد لم يكن لعامل الاضطراب فقط.

ولا يخلوا مؤرخ مريني من هذا النمط الظاهر في النقد، ويلاحظ ذلك في نظم ابن شبرين الذي دائما ما كان ملخصا لخط مسير السرد التاريخي، إذ نلاحظ أن ثلثي نقده كان عن ما يتعلق بالفترة بعد العقابية¹، ونظيره أيضا ابن عذاري ذو الولاء المريني كما قدمت سابقا، كان إذا خرج تائر على الموحدين قبل العقاب نزل عليه تشنيعا، إلا أن لهجته تختف بعدها ويضيف ألفاظ التخميم إذا جاء الكلام على صعود بني مرين²، ونجد ابن عذاري يتخذ موقف المحايد إذا تعلق الأمر بصراع موحدي-موحدي دون الانحياز ويرجع سبب التدهور الاقتصادي والكساد لهذه الفتن³.

لم تتصاعد لهجة ابن عذاري النقدية بذلك الوضوح والارتفاع الذي كان عند ابن أبي زرع، الذي بدأ التصعيد من أول العقاب واغترار الناصر بعده⁴، إلى انتقاد صغر سن المستنصر عند توليته الذي في عهده بدأ دخول المرينيين وانتقاد سيطرة أعمامه⁵، وذكره في موضع آخر بشرب الخمر واللهو، ويذكر من تغلبوا على حكمه أنهم "جاروا في الأحكام وولوا أمرهم السفلة وأبعدوا العلماء وقربوا الجهلة"⁶، إلى انتقاد لعهد

¹ ابن شبرين، المصدر السابق، ص 350.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 384. والمقصود هنا نكده بني مرين وإفرادهم بلفظ أعزهم الله دون غيرهم.
³ نفسه، ص 483.

⁴ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 240.

⁵ المصدر نفسه، ص 242، 243.

⁶ ابن أبي زرع، الذخيرة السننية، ص 24.

العادل ويحيى بن الناصر وجعلها كلها فتن¹، إلى آخرهم أبو دبوس منتقدا كبره وكفره
النعمة بعد نكته عقدا مع المرينيين².

ويبرز النقد بعد العقابي عند أبي زرع في أوضح تجلياته عند سرده مبادئ الدولة
المرينية وظهورها في كتابه، إذ نجد توافقا تاما مع السردية المرينية لا حياد عنها³،
ويصور مشهدا من الخراب عم البلاد المغربية بعد العقاب وقبل دخول المرينيين،
والبادي من الأمر هو دفع سياق للصعود المريني كمخلصين من مما حل من نكد،
وهي عادة كل نظام صاعد، يرسم صورة قاتمة عن النظام البائد، معينا نفسه كمخلص
مستحق للمدح والحمد.

¹ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 246-248.

² المصدر نفسه، ص 261.

³ نفسه، ص 281، 282.

ثانيا: ما وراء النقد.

1- النقد والزمان:

مصطلح الزمان دمج وتركيب بين مصطلحي الزمان والمكان، يستخدم غالبا للدلالة على تداخل بين الحيزين أو التلازم بينهما، وهو مصطلح محدث معتمد في الدراسات الأدبية¹، إلا أن مقصدي هنا ليس الدمج بقدر إيجاد مصطلح ملخص لتأثير الزمان أو المكان أو كلاهما معا على النقد السياسي المدروس هنا.

يصعب نيل القراءة الصحيحة لمؤلف ما دون الإحاطة بزمان ومكان المؤلف، ولا غرابة أن المحققين للمصادر عكفوا على التقديم لمحققاتهم بباب ثابت عن عصر المؤلف، ومثلهم عكفت على دراسة والإحاطة بخلفيات المؤلفين كما هو في الفصل الأول، وأهمية هذا في إضافة بصيرة على النقد المدروس وإقامة الروابط بين عوامل الزمان والنقد السياسي الذي وجه إلى السلطة الموحدية إيجابا وسلبا.

وصور التجاذب بين الزمان والنقد السياسي كثيرة باختلاف الأماكن والأزمان، ويظهر تأثير المكان على النقد من عصر مبكر كنقد السياسة الخارجية كما رأينا آنفا في هذا الفصل، فكان للمكان البعيد عن المكان الذي يقع فيه التاريخ الأثر في تحصيل صورة أوسع، غير أن المكان البعيد قد يكون له أثر في تعطيل النقد، وشاهد ذلك توقف المراكشي في ذكر كيفية وفاة أبي يعقوب الثاني وفي أخبار ثائرين آخرين لعدم بلوغ الخبر إليه لكونه مُشرقاً آنذاك²، وللزمان سلطان على المراكشي أيضا إذ أنه

¹مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيميائي، ط1، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2005م، ص316.

²المراكشي، المصدر السابق، ص240.

يفرد لسلطان عصره نقدا شديداً إيجابية وألفاظ تعظيمية لمعاصرتة الأثر الكبير في ذلك على الأغلب¹.

يظهر الزمان كعامل عام مؤثر في النقد السياسي في حالة نقد الدعوة، إذ يزيد لدى المتقدمين من المؤرخين أكثر منه لدى المتأخرين، والسبب في ذلك يرجع إلى عاملين، كون فترة الدعوة أقرب لهم زمنياً وأخبارها لم ينشف حبرها بعد، وأيضاً قريبتهم لهذه الفترة كانت أثارها وتأثيرها فيهم أكبر لقربهم الزمني عكس المتأخرين.

وابن الكردبوس نموذج مبكر أيضاً في تأثير المكان والزمان أكثر وأحداث عصره على نقده فيما أرى، وكذلك فيما يرى محققه أنه أثر على روايته لتاريخ الموحدين، فابن الكردبوس مكاناً من بلاد الجريد، وزماناً عاصر السلاطين الثلاثة الأول من الموحدين²، وكان من ضمن الأحداث التي عاصرها صراع بني غانية المرابطين مع الموحدين والذي شمل بلاد الجريد جنوب إفريقية، وشمل المغربيين الأدنى والأوسط، ولا غرابة أن يرى ابن الكردبوس في الموحدين موطدي الاستقرار ببلده ما رآه.

وزمان ابن القطان كان على منواله متوتراً، غير أن السلطة الموحدية كانت بموقف ضعف، والحكم في تضعف وانقسام، وسقوط الدولة بدا مسألة وقت فقط، ومن مظاهر تأثره محاولته إيراد نصوص مكذبة للواقع المتوقع وذلك خلال سرده وقائع معركة البحيرة وآثار عن ابن تومرت بعد سلامة عبد المؤمن، أن لا يجزعوا وأن الأمر باق إلى قيام الساعة، ويكمل معلقاً أن الخلافة في عقب عبد المؤمن إلى قيام الساعة³، وهو عصر ظهور منازعين لهم فتكوا بهم لاحقاً، ويعنون كذلك ابن القطان بالخط الكبير في بداية عصر عبد المؤمن "الإثناء الإمامي المهدي... والتصريح

¹ نفسه، ص 241.

² ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج 1، ص 18 و 19.

³ ابن القطان، المصدر السابق، ص 171.

بخلافته بعده... وبقاء الامر العلي في عقبه الكريم إلى قيام الساعة"¹، ولا أوضح من هذا إشارة على سعي ابن القطان في تسكين شكوك بدت حول مآل الحكم المؤمني، مما ولد أثرا على نقده الإيجابي تجاه سلاطين البيت المؤمني.

من المؤثرات الزمكانية الفاعلة الزمكان الأندلسي، الذي أثر على عامة المؤرخين الأندلسيين، فإن عيشهم هنالك وتلقيهم المعارف الخاصة بالأندلس يؤثر تبعا على النقد، ومثل ذلك إيراد صاحب الحل الذي كتب وهو بالأندلس² معلومات عن تشييدات للعادل حين كان واليا في الأندلس لم يذكرها غيره، ولم تتوفر لديهم المعلومة لنقد الجانب العمراني لديه³، وحتى في نقده للدعوة كان ذاكرا لآثارها السلبية على الأندلس جاعلا إياها معيار الأثر السلبي⁴، ونفس الحال لدى ابن صاحب الصلاة الأندلسي الذي نجد نقده العمراني متركزا في أعمال الأندلس⁵.

وأثر الزمكان الأندلسي لا يرى في حالات قليلة نسردها بل بالنظر في النقد والأوضاع العامة، فاضطراب الوضع العسكري في عصر صاحب الحل يجعله يثمن الانتصارات القديمة والحملات العسكرية في الأندلس، لغيابها في عصره، فحرمان الشيء معلم لقيمته.

¹ نفسه، ص173.

² مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص7.

³ المصدر نفسه، ص163.

⁴ نفسه، ص119، 120. وقال عنها "فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس".

⁵ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص166، 167.

2- النقد المستحق الغائب والبرودة في الدماء:

لا يخلوا عمل بشري من النقص مهما اقترب من الكمال، وهذه القاعدة من إحدى الأسس التي يقوم عليها النقد، والنقد ذاته خاضع لها، إن كان هادفاً يكون مراده التنبيه على الحسن لاتباعه والقبیح لاجتنابه، وهو أيضاً فيما أعتقده أحد الغايات السامية للمعرفة التاريخية وإدراك تجارب الأمم السابقة، غير أن النقد السياسي لم يكن دائماً ذا الأولوية الأولى في العملية التاريخية لدى المؤرخين، لذا كان من المهم لفت الانتباه لما قد يكون أغفل من نقد ممكن مستحق، في ميادين شتى رأيت أبرزها ما كان في التعاطي مع الأحداث الدموية.

وان لم يكن بالإمكان سرد جميع المواضيع التي غاب فيها النقد المستحق فإنه لا أقل من ذكر معالم لذلك تقدم للخوض في دوافع ذلك، ومن البدايات الأولى لتدوين التاريخ الموحد يغيب النقد في بعض المواضيع، فالبيزق وإن سرد هزائم للموحدين كالبحيرة يغيب عنه أي نقد داخلي رغم معاصرته ومشاركته في هذا العصر، وحتى في عصر عبد المؤمن وقتله وتهجير لقبيلة صاحبه ابن تومرت والصراع السلطوي يسكت عنه البيزق¹، وسبب الصراع بداية تركيز الحكم في البيت المؤمني لا التومرتي أو غياب الطريقة الشورية، وذلك أيضاً تجاهل البيزق نقده في ذكر توليات عبد المؤمن بنيه وتحول الحكم الموحد إلى أسري وراثي²، وعند المراكشي أيضاً يغيب انتقاد أبرز تجليات هذا بتولية حديث السن أبي يعقوب الثاني³.

يغيب النقد حين يتحول التاريخ لعملية تدوينية فقط لا غير، ومثال ذلك ذكر صاحب الحل للوزراء المتعاقبين على الحكومات الموحدية دون نقد في غالب

¹ البيزق، المصدر السابق، ص76.

² نفسه، ص77.

³ المراكشي، المصدر السابق، ص237.

الأحيان، كعملية تسجيل لهم فقط¹، وعلى منواله صاحب مفاخر البربر بذكر تسجيلي للسلطين الموحدين دون أي نقد وإن كان دافع تدوينه مختلفا إلا أنه كانت هناك إمكانية للنقد انطلاقا من دافعه².

وينطبق في هذا الموضع عدم تطبيق ما يسميه الطبري "الاستخراج بالعقول والاستتباط بفكر النفوس"³، وذلك منهج التاريخ التدويني قبل نضوجه، ولابن الجوزي نص بديع بعد الإشارة لغياب نقد الأخبار والسياسات ينبه لنقطة هامة لقارئ التاريخ الخالي من النقد "ومن أعظم خطأ السلطين والأمرء نظرهم في سياسات متقدميهم وعملهم بمقتضاها" ثم يوضح معيار نقد هذه السياسات "من غير نظر، فيما ورد به الشرع، ومن خطأهم تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة بأن الشرع هو السياسة لا عمل السلطان برأيه وهواه" وينبه ابن الجوزي لخطورة ومضمون التسليم بالسياسات المنظور فيها والمأخوذ بها دون نقد "ووجه خطأهم في ذلك أن مضمون قولهم يقتضي أن الشرع لم يرد بما يكفي في السياسة فاحتجنا إلى تنمة من رأينا، فهم يقتلون من لا يجوز قتله، ويفعلون ما لا يحل فعله، ويسمون ذلك سياسة"⁴.

ومن السياسات التي لم تأخذ حقها من النقد ظاهرة المرتزقة النصارى في دولة الموحدين والاستعانة بهم⁵، وما أدى لتلك الاستعانة في عصر المأمون من بناء كنيسة في قلب العاصمة مراکش مقابل خدماتهم بعد اتفاق مع ملكهم، ويذكر ابن خلدون

¹ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص142، 151، 157، 159، 163. كلها أمثلة على ذكر لحكومات دون نقد.

² مفاخر البربر، المصدر السابق، ص208-210.

³ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص9. من مقدمة المحقق وقد بحثت عن العبارة في المصدر لكن لم أوفق.

⁴ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج1، ص117.

⁵ أنظر: بومدين هشام نمر، "المرتزقة النصارى في بلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين"، مجلة عصور الجديدة، مخبر التاريخ، جامعة وهران، الجزائر، م8، ع1، ماي 2018م، ص83-99.

ضرب نواقيسهم في مراکش دون أي نقد¹، ومثله ابن أبي زرع²، رغم أن الموقف يستحق النقد لكونه حدثاً غير مسبوق في تاريخ المغرب، وانتقد المأمون عليه حتى الشعراء المعاصرون كشاعر يحيى ابن الناصر³.

يتراكم الكم الأكبر من النقد المستحق الغائب أو الأدنى من المتوقع إن حضر، في السياسة العسكرية والأحداث الدموية المتكررة، وهو ما لم يسلم منه غالبية المؤرخين، فكانوا إذا انتقدوا استخدموا النقد بالإخبار أو أضمنوا الألفاظ، بينما بعض الأحداث كانت تستحق انفعالا أكثر، كذكر صاحب الحل نقلا عن اليسع مذابح تلمسان التي بلغت المائة ألف⁴، ومذابح مراکش التي فاقت السبعين ألفا⁵، ببرودة في التعامل دون أي نقد منفعل أمام هذه الأرقام المهولة، وابن خلدون يقع في نفس الأمر حين نقل حصار وهران الذي كان قد أخرج ابن عذاري عن هدوئه⁶، ولم يكن الموقف الوحيد فكذلك في دخول قلعة بني حماد أين قتل 18 ألفا وسبي من بقي⁷.

ولست هنا بصدد ذكر الموالين الذين لا يتوقع منهم نقدا، كابن الكردبوس الذي ينتقد مثل هذا بالإيجاب⁸، ومثله البيهقي في ذكر أحداث دموية كثيرة⁹، فلهؤلاء دوافعهم الخاصة في غياب النقد، ولا يرقى أن يكون مستحقا عندهم، إنما المستحق هنا عند اللاحقين أو المحايدون إن جازت التسمية.

¹ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص341.

² ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص251.

³ ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص401.

⁴ اليسع، المصدر السابق، ص176.

⁵ نفسه، ص181.

⁶ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص309.

⁷ نفسه، ص316.

⁸ ابن الكردبوس، المصدر السابق، ج2، ص1318.

⁹ البيهقي، المصدر السابق، ص70-72.

ولهذه البرودة النقدية عدة أسباب تقف خلفها تعذر النقاد، أولها ما يسميه الغزالي مبدأ سقوط الثقل بكثرة السماع¹، أي التعود على سماع الشيء المستنكر يسقط ثقل وقعته في النفس ويقل استثناعه مع تكراره، وصاحب الحلل يورد معنى مقاربا في نص جميل النسج عن أثر مطالعة التاريخ، فعدا عن تصور الحروب ومكائدها كأنه يشاهدها، يذكر مآل ذلك "ثقل مبالاته بالأمور المهولة ويقف على تصريف الأيام من الصعوبة إلى السهولة"²، وصاحب الحلل يقع في ما أشار له من برودة وقلة مبالاة بالأمور المهولة كذكره موت أربعين ألفا وعدد لا يحصى من الرجالة أثناء فترة الدعوة التومرتية وغلبت عليه الصياغة الأدبية في ذكر خبرهم "أعراس للطيور وولائم"³.

ومن أسباب البرودة كذلك استئقنا نحن تلك الأحداث لقلة وقوعها في عصرنا "المسالمة" نسبيا مقارنة بعصورهم، فعلى قراءة التاريخ المدون وفهم المؤرخ بمعطيات عصره لا عصرنا فقط، إذ من النادر أن تخلوا سنة من صراع عسكري في العصور الوسطى، وغرابة تلك الأعداد عندنا ليست بمقدار تعودهم عليها، كذلك للعامل الزمني تأثير في مدى التأثير وكلما بعد الزمان قلت روابط التآلف مع الماضين الفاعلة في تكوين التعاطف ثم الاستثناع.

¹ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 2004م، ج2، ص231.

² مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص13، 14.

³ المصدر نفسه، ص114.

3- دوافع النقد وانعدامه:

لكل ابن آدم ما عوامل دافعة نحو الإقدام على أي عمل، فكري بالخصوص، ظاهرة وخفية، وليس النقد السياسي بمعزل عن هذا، وفي هذا الموضوع وإن أردنا إبراز دوافع النقد السياسي وعدمه في المدونة التاريخية للغرب الإسلامي فلسنا نطعن في مدوني هذه المدونة، ولا ننفي عنهم الدافع الموضوعي في النقد، لكن القصد إبراز بعض ما يخفى من دوافع كانت محرّكة هي الأخرى في إطلاق النقد وحبسه.

وأول ما يتبادر إلى الذهن من دوافع هو الولاء السياسي وأثره في هذا النقد السياسي، والولاء الموحدى بالتحديد لدى المؤرخين المعاصرين، كان له الأثر الأكبر في قلة حصيلة النقد لديهم، وليس السلبي منه فقط، فإن كان الولاء عقدياً أيضاً يؤثر حتى عن النقد الإيجابي إذ يرى الناقد أنه لا طائل من نقد سياسيات كانت بتوجيه رباني، فلا يرجع الفضل لذكاء وحسن تدبير المسيّرين، فالمهدي مهدي، وعبد المؤمن هو القيسي المنتظر.

وكما أن الولاء الموحدى كان دافعا في عدم استئناع ما قد يستشعنه من كان بولاء آخر، فإنه قد يحرك نقدا نحو طرف من السلطة إذا كان الناقد منحازا لطرف منها، كنقد ابن صاحب الصلاة لعبد السلام الكومي، وظاهر ذلك النقد استئنائه بالغنائم وباطنه استعلاؤه وتقصيره نحو أولاد عبد المؤمن الذي منهم عمر بن المؤمن صاحب ابن صاحب الصلاة¹.

أثر الولاء المريني في بعض المواضع القليلة أين كان سببا في إظهار النقد السلبي، كنفذ الجزنائي بالإخبار السلبي هدم عبد المؤمن أسوار فاس ليذكر بالمقابل

¹ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 115.

تشييدات المريني المعاصر له في فاس وبناء سور وبرج عظيم ونقدا إيجابيا له¹، وعلى منواله نقد ابن أبي زرع لأبي دبوس لما ربطه من علاقة متجاذبة مع المرينيين²، ونقد آخر عن حالة خراب عمران المغرب قبيل دخول بني مرين³.

بينما الولاء الحفصي كان له أثر أكبر في عملية النقد وأوضح، فإننا إذ استحضرننا أن الدولة الحفصية قد أبقّت على دعوى مهدية ابن تومرت، نجد مؤرخيها قد عفوا وتجنبوا أي نقد سلبي لهذه الدعوة⁴، بينما لا يمتنعون عن بعض النقد المبطن لبيعة عبد المؤمن كابن قنفذ⁵ والزركشي⁶ وقد انفردوا في ذلك، ويتضح سبب هذا النقد السلبي المبطن إذ يبين ابن قنفذ أن الدعوة الموحدية على نوعين مؤمنية وحفصية⁷، مما يبين رؤيتهم أحقية الشيخ أبي حفص بخلافة ابن تومرت على عبد المؤمن.

وبسبب هذا الولاء أيضا نجد غياب ما انتقده ابن أبي زرع في الناصر بعد العقاب من غرق في اللهو والخمر، فلا يذكر الزركشي ولا ابن قنفذ ذلك، وقد يفسر ذلك كون الناصر هو من ولي عبد الواحد الحفصي على إفريقية بعد قتال بني غانية⁸، وفي حالة معاكسة ينتقد الزركشي صغر سن المستنصر وتغلب وزرائه عليه، وقد يكون لتأخر عبد الواحد الحفصي في بيعته سبب مبطن في تحفيز هذا النقد السلبي⁹.

¹الجزنائي، المصدر السابق، ص43.

²ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص261.

³المصدر نفسه، ص282.

⁴انظر مثلا ابن قنفذ وكلامه عن الدعوة: ابن قنفذ، المصدر السابق، ص100.

⁵نفسه، ص101. إذ ذكر عدم تسميته بأمر المؤمنين في السنوات الخمس الأولى.

⁶الزركشي، المصدر السابق، ص7. وذكر أن أزواج كان قد بويع قبله.

⁷ابن قنفذ، المصدر السابق، ص108.

⁸الزركشي، المصدر السابق، ص17-19.

⁹نفسه، ص19.

كان للولاء الحفصي الأثر البالغ حتى في النقد الحكومي، فالزركشي نادرا ما ينتقد بالإيجاب والسلب أو يفصل في ذكر وزير إلا إذا كان ذا علاقة بالعائلة الحفصية¹، ومثله ابن خلدون الذي لا يغفل إذ ذكر التعيينات أن ينبه على علاقة المستورز بالحفصيين²، وليس باللائم أن يكون هذا تزلفا، فالإمكان أن يكون من تأثيرات المكان ومصادر المعطيات والاهتمامات، كعرفة المسيلي لأعلام مدينته أكثر من غيرهم.

ومثله في الانتماء المكاني، الانتماء الأندلسي الذي كان مؤثرا على كتاب كصاحب الحل مثلا، فهو إذا انتقد الدعوة كان معياره الخراب الذي تسببت فيه في الأندلس وتغلب النصارى بعضها بعد أن كان الإسلام عزيزا والكفر ذليلا قبل ذلك³، وصاحب الحل أيضا إذا ذكر سلطانا موحديا لازم ذكره جوازه إلى الأندلس، وإذا قلت أعماله بها خف ذكره وتوازيا نقده⁴.

وليست العوامل الفاعلة في النقد كلها ولائية، فمنها من كان منهجيا. والتزاما بمبادئ التزم بها الناقد، قد يبدو للوهلة الأولى متناقضا إن لم يدرك القارئ اتجاه الكاتب، والمقصود هنا ابن عذاري، الذي بالاستقراء العام لانتقاداته وما استحسنته وما استتكره، نجد له اتجاها واضحا، الانحياز إلى السلطان القائم الحاكم، والنفور من الخارج حتى يتغلب، فعبد المؤمن قبل موت آخر أمراء المرابطين ودخول مراكش قبحة الله⁵، وبعد تغلبه كل خارج عليه ومعارض مفسد غوي مفارق للجماعة⁶، مات الملك،

¹ نفسه، ص 17، 30.

² ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 331.

³ مؤلف مجهول، الحل الموشية، ص 120.

⁴ المصدر نفسه، ص 158-160.

⁵ ابن عذاري، المصدر السابق، ج 3، ص 487.

⁶ نفسه، ص 191.

عاش الملك، ويقدر في ابن عذاري التزامه منهجه، باستثناء ما يتعلق بخروج المرينيين أول أمرهم¹.

ووجب التنبيه أخيرا أن مطلب الدوافع هذا لم آخذ فيه بالقطع بل بالترجيح فيما بدا لي، آخذا بالمنهج التاريخي الذي سرت به في النظر في الخلفيات والمشارب والربط بين المؤثرات والمخرجات، مع العلم بخطورة الخوض في النوايا، وأن الجزم والفصل النهائي لما في الصدور يكون لخالقها، غير أنها محاولة محاكاة للفراسة الأصيلة والتحليل والاستنباط بالطرق الحديثة لمقاربة ما ظهر من الحقيقة مع فهم وتفهم للماضي دون سذاجة أو تجنٍ، طالبا الإنصاف ناظرا بتأنٍ.

¹ نفسه، ص 487. ففي بداية ظهورهم وخرجهم على السلطة الموحدية يرفق ذكرهم بـ"أعزهم الله".

الختامة

أما وأنه قد وجب، أن يُختم البحث في النقد السياسي دون أن ينتهي، داعياً الله أن أكون قد سبقت به كسبق عكاشة، وأجدت في فتح بابه كفتح خالد وعقبة، على أن العُقبى فيه لا تزال لمريدها أن يحمل مشعلها الذي أوقدناه ههنا، على ساحة المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي، متخذين من السلطة الموحدية نموذجاً لدراسة ما نالها، وأحاط بها من نقد سياسي.

وبكونه قد كان طريقاً حديثاً المسلك، فإن تعبيده للسير فيه استوجب تمهيده بضبط مصطلحاته؛ أولها النقد الذي ورد لغة بمعنى الفحص وإبراز حقيقة الشيء، وتطور معناه الدلالي الاصطلاحي إلى التعبير عن موقف، وإلى عملية منهجية الخطوات، فتشكل لنا مفهوم النقد السياسي في المجال الزمني المدروس، وما تعنيه السياسة فيه، عدا عن نقدها الذي هو تمييز الحسن من القبيح في الأمور المتعلقة بتدبير شؤون الأمة.

وتمهدت طريق أخرى إلى النموذج المدروس، دولة الموحدين، بداية بآبن تومرت، وثورته التي بدأت شرارتها، واستخدم فيها ملهبا النقد السياسي، ليتوطد حكم بلاد المغرب لصاحبه عبد المؤمن، وسلالته التي بلغت أوجها في الأرك، قبل أن تتكسر في العقاب. وعلى مسيرتها الحافلة فإنها قد لازم ما دُونَ من تاريخها أساليب نقدية لسياستها لم تخرج عن ثلاث: نقد مباشر، وآخر مبطن، وثالث بالإخبار، متقلبة بين نوعين: تثنينية إيجابية وتثنينية سلبية.

ولقد روت هذه العقول الناقدة منابع متعددة، أثرت فيما خطّوه، وصقلت قرائحهم، بين ثقافة عربية نقدية سياسية ممتدة إلى العصر الجاهلي، مشجعة لهم على الإقدام على النقد، إلى الفترة الإسلامية مُسرّعة وموجبة للنقد، مظهرة ممارستها لدن خير جيل، وتقبّلها بل وطلبها من خير حكام الذين لا يرقى إلى مقامهم أي سلطان.

كما روت عقولهم ومحابرهم ما علموه من تاريخ محلي قبل موحدني، وما فيه من تعامل نقدي مع السلطة، بدأ من عصر مبكر حتى القرن السادس؛ أي بدأت الفترة الموحدية التي حوت هي الأخرى في ثقافة عصرها روحا نقدية، بدأت به ثورتها، واستمرت فيها على أشكال عدة، كالنقد الذاتي الذي كان أداة إصلاح داخلية.

جاء مؤلفو المدونة التاريخية الوسيطية من خلفيات نقدية عدة متداخلة، متباينة المواقف من السلطة الموحدية ورجالها، على تعدد مشاربهم الفكرية والمذهبية، وتعدد مناهجهم التي أظهروها في مؤلفاتهم أو تبنت منها، وبواعث تأليفهم التي كان منها علميا خالصا ومنها ما كان سلطانيا وما كان لعصبية.

ويندر ألا نجد لأحد النقاد علاقة بسلطة عصره، الموحدية المنتقدة أو ما لحقها، ومع الفطنة بما قد يؤثر ذلك في النقد ودوافعه إلا أنه يجدر التنبيه لما يعطيه من إضاءة لدى الناقد، ومعرفة بدواليب السلطة ومسيرها، فيكون نقده عن إدراك أوسع، والسلطة هي الأخرى كانت متفاعلة مع النقد بين صرامة وتسامح متراوح ومتذبذب، كان فاعلا بما ليس فيه شك في جرأة المؤرخ على إعمال نقده أو كتبه.

جعل النقاد من الدعوة التومرتية عمود الرسي في خيمة نقدهم، فأطالوا في سردها ونقدها سلبا وإيجابا، على اختلاف مواقفهم، حتى في الأمر الواحد أحيانا، والأمر راجع لاختلاف خلفياتهم ومشاربهم، وأتى نقدهم على طبقات، أولها نقد الشخصية الرئيسية فيها، نسبها، وخصالها، وعقائدها، ثم لأفعال الدعوة وأتباعها ثم أتباعها، فكان النقد هنا حاسما فيما يلحق من نقد موجه لها غالبا.

وكان السلاطين محل النقد الثاني، على توسع المؤرخين في الشخصيات المنتقدة، دون تسطيح، وجعل الأمر بياضا أو سوادا، فقد ميزوا بين صالح أفعالهم وطالحها، ولم يُعاملوا كذوات فوق النقد، وكذلك حكوماتهم إذ بلغ الأمر بالنقاد تناول

آليات التداول على السلطة، والتفطن لعطبها، والتفصيل في التعيينات، وما زان وشاب البطانة على مدى عصور ممتدة.

عرفت السلطة الموحدية على مدى عصورها بسطوتها العسكرية، التي كانت محل نقد في نجاحاتها وإخفاقاتها، بالسلب والإيجاب في الحالتين، لما تخلل تلك الأحداث التي نالت اهتمام وأسالت الكثير من حبر المؤرخين، واستقرت نقدهم.

وطال النقد أيضا سياسات كانت أكثر ثباتا طويلة الأمد، منها ما كان دينيا، كان لمشارب النقاد وخلفياتهم الأثر الكبير في نتائجه، وكذلك في السياسة العمرانية التي تعد أحد الجوانب المشرقة لدولة الموحدين التي استحسن كثيرها، واستتكر بعضها، على عكس مواضع أخرى في السياسة الاجتماعية التي كان النقاد أكثر حدة فيها، بداية بالمجتمع المغربي كله إلى نقد النواة الموحدية المصمودية، ثم ما ألقته الثورة الموحدية بمركبات مجتمعية تضررت منها، إلا أن السلطة قد تحسن نقد سياستها الاجتماعية في ما يلي من عقود أكثر ركودا ودعة، وقرت فيها نماذج بديعة مستحقة للنقد الإيجابي.

وعلى غرارها، وموازية لسياسة العمرانية والاجتماعية انتقدت السياسة الاقتصادية بشكل أخف مما سبق لتبعيتها لعوامل أخرى، وأقل منها نقدا السياسة الخارجية التي كانت عملة نادرة، سبب قلتها أسباب كثيرة منها المركزية المغربية لدى الكتاب، وتقوقعهم في مصادر محلية، وغلبة الطابع العسكري على الصراعات الخارجية، وكون كثير من المؤرخين قد كتبوا في عصور مبكرة عن تكشف السياسة الخارجية.

ظهرت عدة أنماط وظواهر نقدية بعد استقراء النقد وعرضه، وبدت كالشمس في رابعة النهار، أشدها سطوعا ظاهرة النقد العكسي الدفاعي الذي وظفه النقاد الموالون وحتى المحايدون، في دفع جملة من الانتقادات السلبية الموجهة، فكان ناقدا للنقد. ومن الظواهر الأخرى البادية ظاهرة النقد العمراني عند أصحاب تواريخ

المدن إذ أتقنوا هذا الفن ورادوا فيه لما وافق لون تواريخهم من النقد وتخصصهم، كما يظهر بشكل جلي ارتفاع الحاسة النقدية في المؤلفات المرينية بعد معركة العقاب، ولمؤلفيها أسبابهم المشتركة في ذلك كونها الحدث المؤسس للدولة التي عاشوا تحت ظلها.

وسببهم ذلك إن هو إلا من أحد صور تأثير الزمكان على النقد، إذ أن البحث فيما وراء النقد يقودنا لربط النقاط ببعضها، واستخراج تفاعلات بين المكان والزمان مع النقد الموثوث في المدونة التاريخية، وكيف أن الناقد لم يكن في حلّ دائما من قيود عصره ومصره، كما يقودنا البحث المتعمق لإيجاد فجوات في النقودات مجتمعة، لم يكن فيها النقد كما هو مأمول، باردا أو غائبا كلية في مواضع مهمة، وضعت لأسباب ذلك احتمالات، أراها قد تفسّر ذلك حسب خصوصية كل مؤلفٍ ومؤلفٍ؛ ككثرة السماع، وسقوط الثقل، أو طبيعة العصور الوسطى مقارنة بعصرنا.

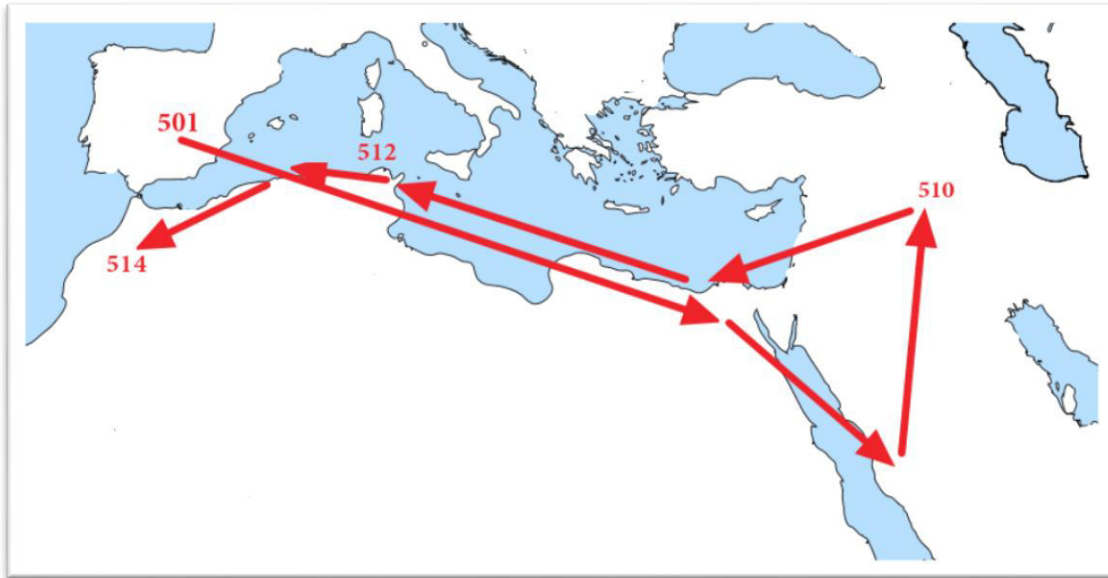
تقف وراء النقد، وغيابه، ودوافع أخرى لا تظهر إلا بعد تفحص شامل ورؤية الصورة كاملة، وتجميع القطع المصقولة منذ بداية تمهيد وتعبيد الطريق، فنجد الولاء السياسي كان دافعا هاما، بأنواعه: الموحدية أو المرينية أو الحفصية، في إنتاج صور متعددة مختلفة من النقد لكل منها غايتها، ودور آخر في غيابه أحيانا، ونجد الانتماء المكاني، والدافع المنهجي في أحيان أخرى، ساهمت كلها في تشكيل معيارية الناقد وكانت ما يميز كل ناقد عن غيره.

وفي هذا الموضوع يسعني القول إن المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي قد شهدت ثراءً نقديا سياسيا أكثر مما هو متوقع، وتنوعا نقديا وتفصيلا دقيقا مذهلا، جعلني أخشى الإطناب بعد أن بدأت البحث خاشيا القلة، وبوسعي الشهادة أن العقول التي صاغت هذه المدونة لم تركز للخمول وأعملت حاستها النقدية في السياسة التي

دونتها بطرق شتى، كل منهم على حسب ما مكنت له أرضه وأسدل له دهره وشجعه
فعل من كان قبله وأوحى له فكره، وعصمه من الجور في النقد عدله.

الملاحق

الملحق (01): خريطة برحلات ابن تومرت مشرقا ومغربا قبل الجهر
بدعوته¹.



¹تمثيل شخصي من الباحث على خريطة صماء دون مقياس بناء على مجموع ما ورد في المصادر والمراجع التاريخية حول الحركة الموحدية المعتمدة في المطب الأول من المبحث الثاني من الفصل التمهيدي.

الملحق (02): جدول بالخلفيات النقدية لمؤلفي المدونة التاريخية

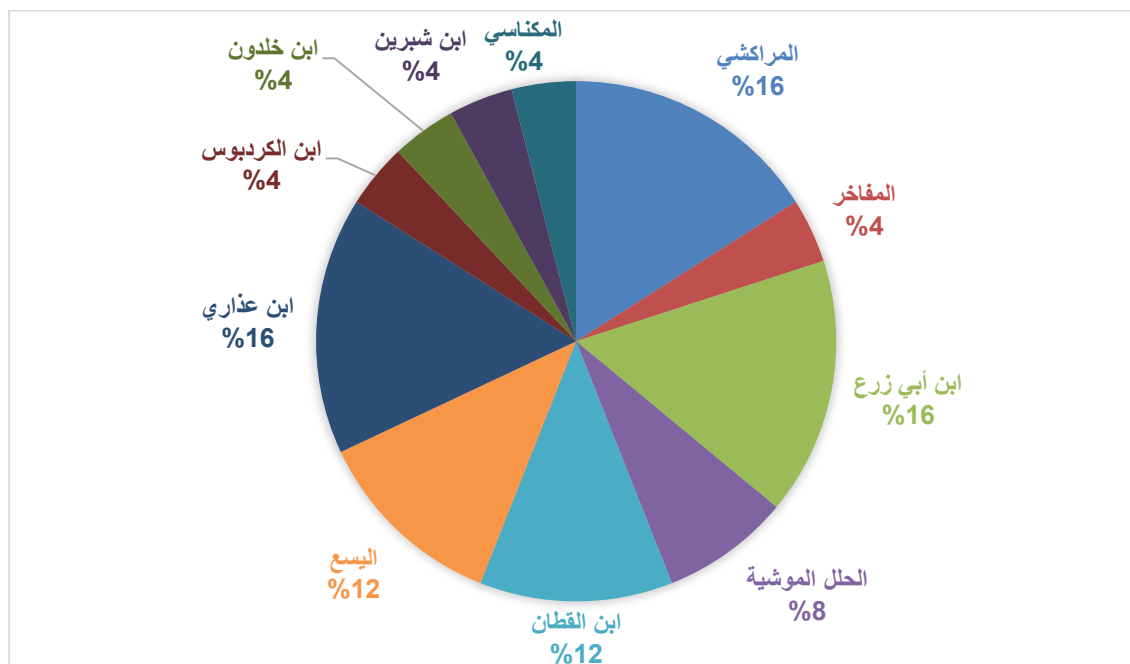
الوسيطية للمغرب الإسلامي¹.

المؤرخ	الوفاة/بعد	مكان التأليف	الولاء/السلطة	المذهب
البيذق	559هـ	المغرب	موحدي	تومرتي ²
اليسع	575هـ	مصر	أيوبي عباسي	مالكي
ابن الكردبوس	575هـ	الجريد	موحدي	مالكي تومرتي
ابن صاحب الصلاة	594هـ	الأندلس	موحدي	تومرتي
عبد الواحد المراكشي	621هـ	المشرق	عباسي/موحدي	مالكي
ابن القطان	ق7هـ	المغرب	موحدي	تومرتي
ابن رشيق المريسي	696هـ	الغرب	موحدية ثم مرينية	مالكي
مفاخر البربر	حي712هـ	المغرب	مرينية	مجهول
ابن عذاري	حي712هـ	المغرب	مريني	مالكي
الجزنائي	720هـ	المغرب	مريني	مالكي
ابن أبي زرع	726هـ	المغرب	مريني	مالكي
ابن الخطيب	776هـ	الأندلس	نصري ثم مريني	مالكي
الحلل الموشية	حي783هـ	الأندلس	نصري	مجهول
ابن خلدون	808هـ	المغرب ومصر	حفصي ثم مريني ثم نصري ثم زياني ثم مملوكي	مالكي أشعري
ابن قنفذ	810هـ	المغرب	حفصي	ملكي تومرتي
اللؤلؤي الزركشي	نهاية ق9هـ	المغرب	حفصي	مالكي تومرتي
المكناسي	919هـ	المغرب	مريني	مالكي

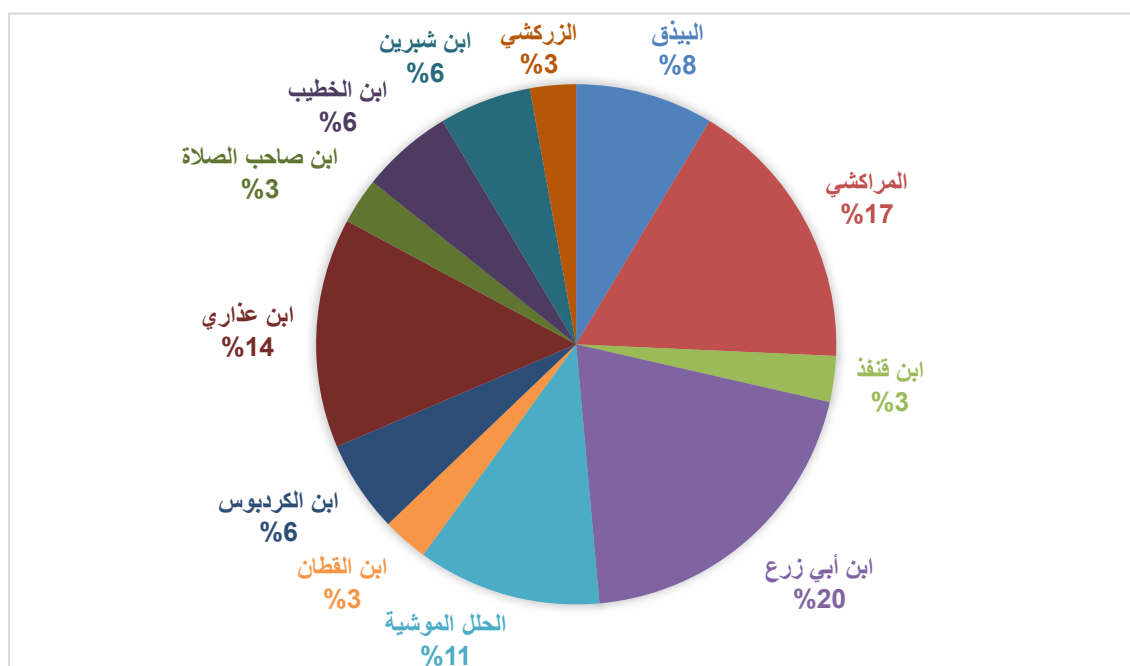
¹ ما ورد في الجدول اعتمادا على ما سبق التفصيل فيه في المبحث الثاني من الفصل الأول.

² والمقصود هنا الأخذ بمهدوية ابن تومرت وعصمته حسب ما بدا في كتابه المدروس.

الملحق (03): دائرة نسبية بنسب المشاركة في نقد الدعوة التومرتية¹.



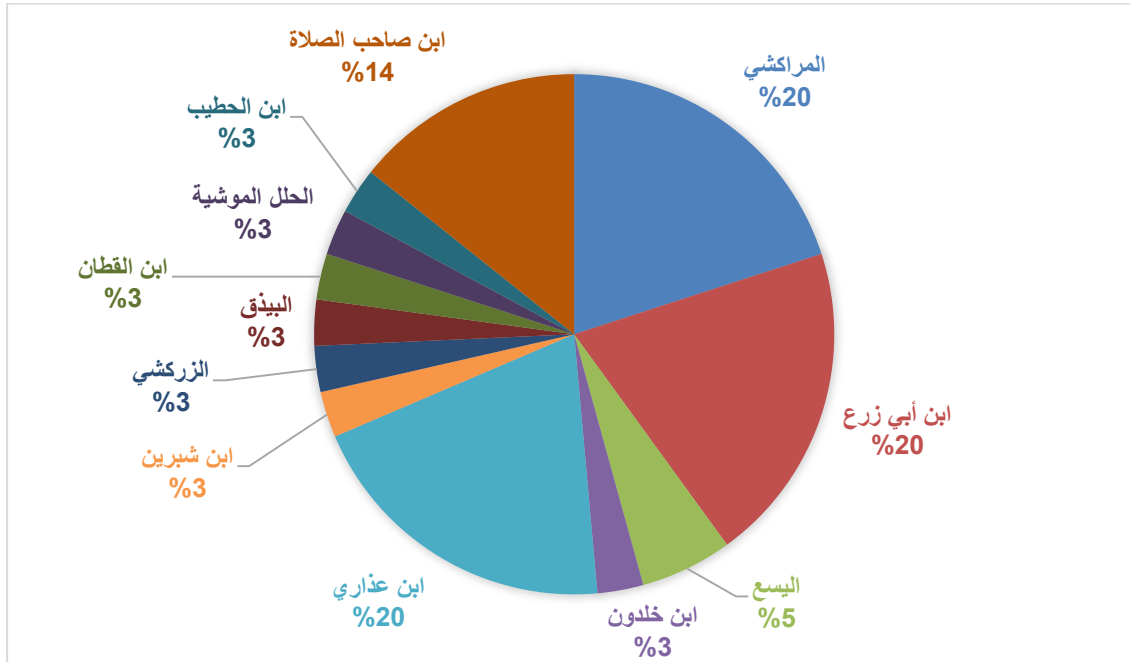
الملحق (04): دائرة نسبية بنسب المشاركة في النقد السلطاني².



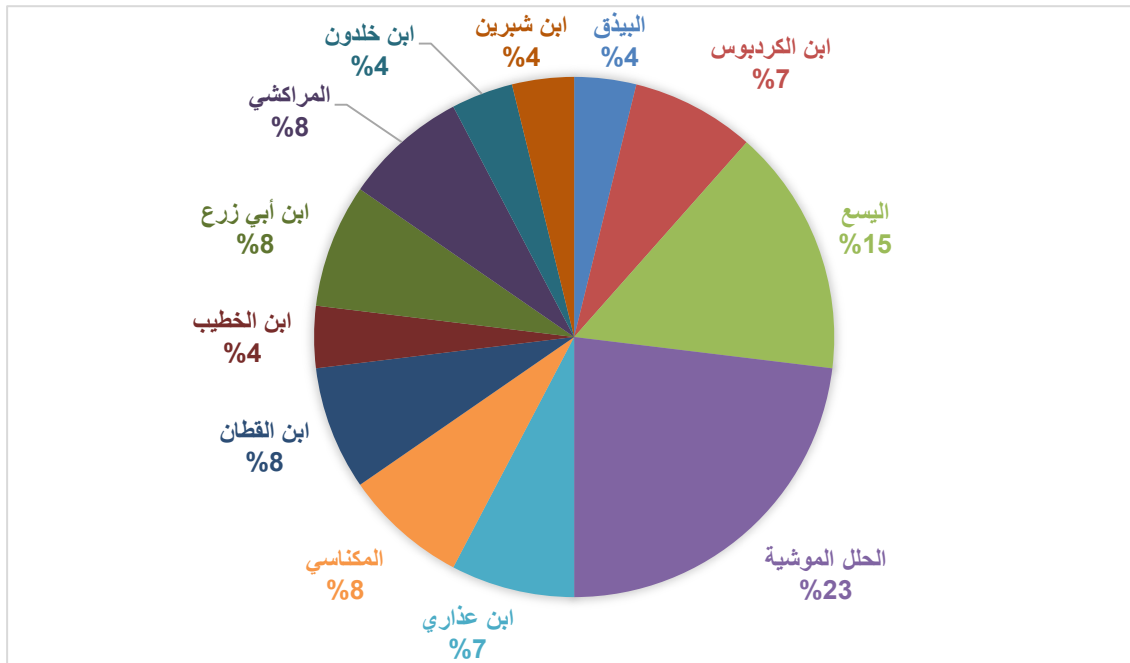
¹ وهي تمثيل لإحالات المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الأول.

² وهي تمثيل لإحالات المطلب الثاني من المبحث الأول من الفصل الأول.

الملحق (05): دائرة نسبية بنسب المشاركة في النقد الحكومي¹.



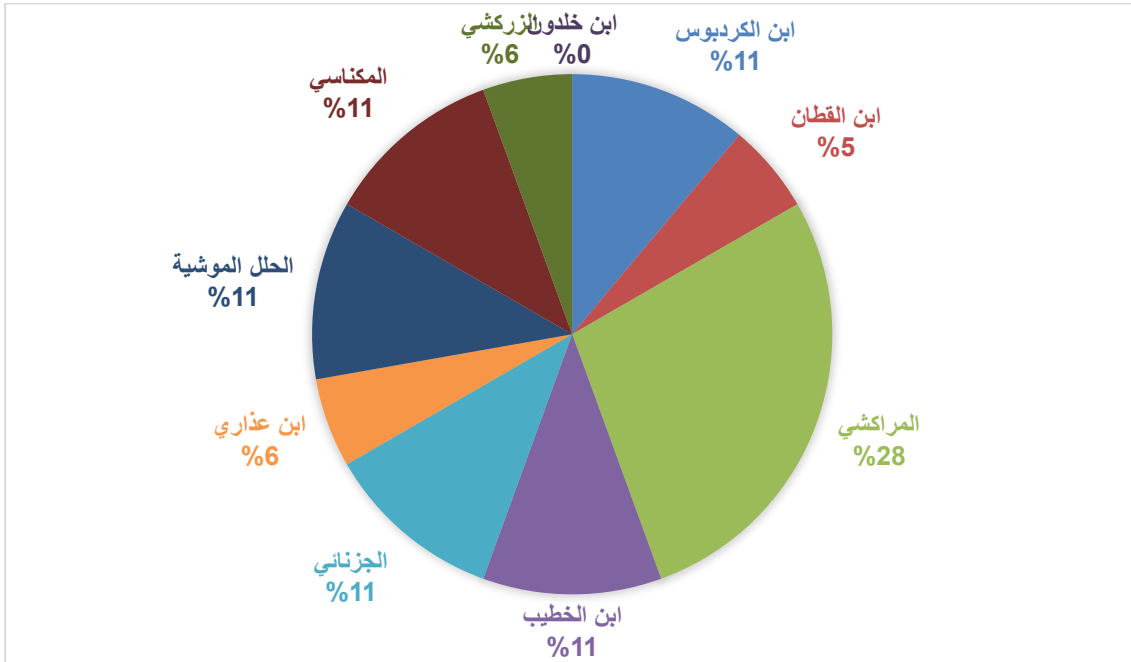
الملحق (06): دائرة نسبية بنسب المشاركة في النقد العسكري².



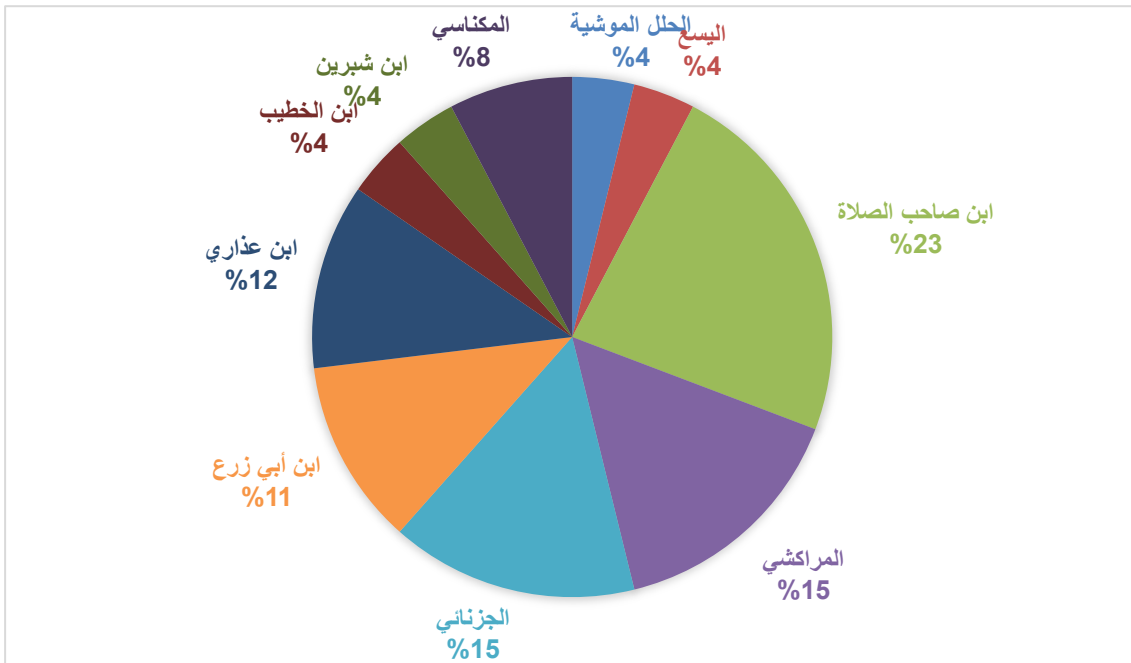
¹ وهي تمثيل لإحالات المطلب الثالث من المبحث الأول من الفصل الأول.

² وهي تمثيل لإحالات المطلب الرابع من المبحث الأول من الفصل الأول.

الملحق (07): دائرة نسبية بنسب المشاركة في نقد السياسة الدينية¹.

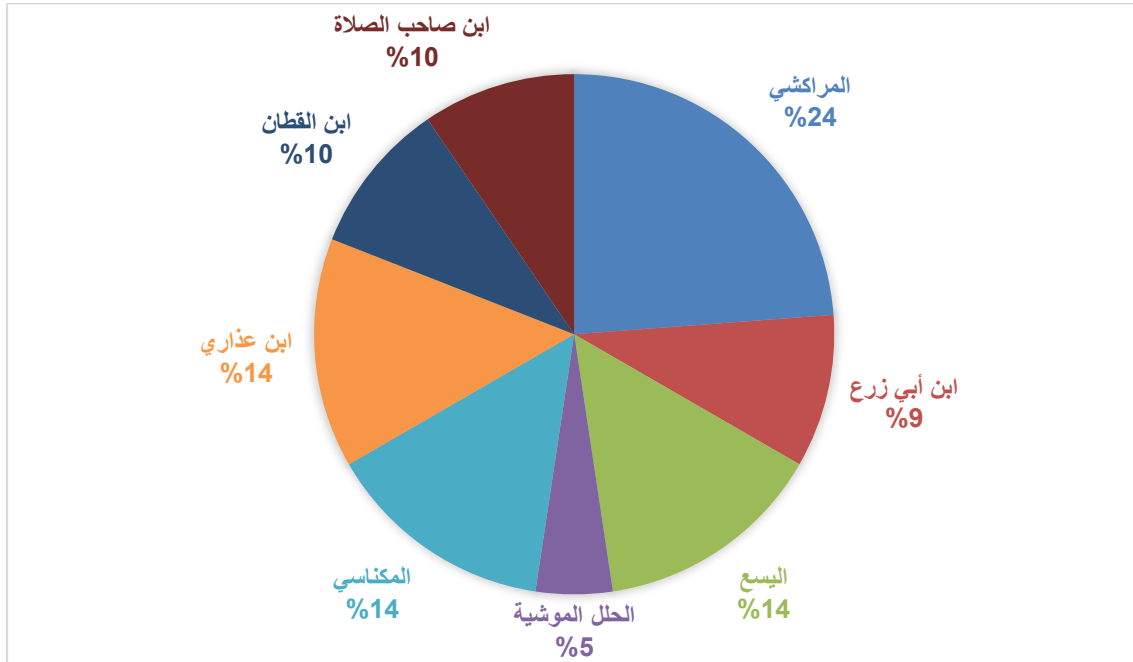
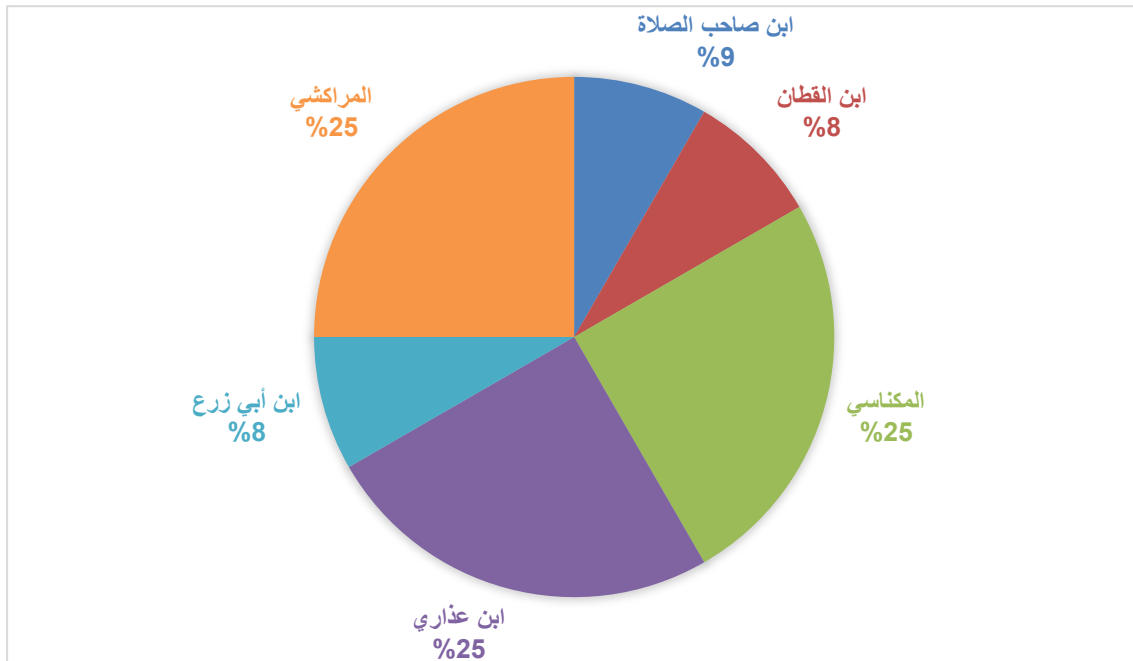


الملحق (08): دائرة نسبية بنسب المشاركة في نقد السياسة العمرانية².



¹ وهي تمثيل لإحالات المطلب الأول من المبحث الثاني من الفصل الأول.

² وهي تمثيل لإحالات المطلب الثاني من المبحث الثاني من الفصل الأول.

الملحق (09): دائرة نسبية بنسب المشاركة في نقد السياسة الاجتماعية¹.الملحق (10): دائرة نسبية بنسب المشاركة في نقد السياسة الاقتصادية².

¹ وهي تمثيل لإحالات المطلب الثالث من المبحث الثاني من الفصل الأول.

² وهي تمثيل لإحالات المطلب الرابع من المبحث الثاني من الفصل الأول.

الورّاقية

- القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع)

أولاً- المحررات باللغة العربية:

I- المصادر:

- ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت658هـ)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام هراس، ط1، دار الفكر، بيروت، 1995م.
- ابن الأثير، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، بيروت، 2001م.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت1093هـ)، حزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.
- البيهقي، أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت559هـ)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط1، دار المنصور، الرباط، 1971م.
- التنبكتي، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد التكروري السوداني (ت1036هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، دار الكتاب، ليبيا، 2000م.

- ابن تومرت، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المصمودي الهرغي (ت524هـ)، أعز ما يطلب، تحقيق: عمار الطالب، ط1، وزارة الثقافة الجزائرية، الجزائر، 2007م.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الليثي (ت255هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دط، دار الجبل، بيروت، 1996م.
- الجزنائي، أبو الحسن علي التازي (ت720هـ)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1991م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت597هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي الأندلسي (ت776هـ)، الإحاطة في أخبار غرناطة، شرح وضبط: يوسف علي طويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي الأندلسي (ت776هـ)، إعمال الأعلام فيمن ببيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
- ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت808هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1988م.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، دط، دار الحديث، القاهرة، 2006م.

- الرقيق، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القيرواني (ت ب417هـ)، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م.
- ابن أبي زرع، علي بن عبد الله الفاسي (ت726هـ)، الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط1، دار المنصور، الرباط، 1972م.
- ابن أبي زرع، علي بن عبد الله الفاسي (ت726هـ)، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ط1، دار المنصور، الرباط، 1972م.
- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (ت ب894هـ)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد (ت538هـ)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- ابن شبرين، أبو بكر محمد بن أحمد الجذامي السبتي (ت747هـ)، نظم ابن شبرين لميزان العمل لابن رشيق، تحقيق: محمد بن شريفة، نشره ضمن كتابه: ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ط01، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2008م.
- ابن صاحب الصلاة، أبو محمد عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي (ت594هـ)، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.
- ابن عبد الهادي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي الحنبلي (ت744هـ)، مجموع رسائل الحافظ ابن عبد الهادي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ط1، دار الفاروق الحديثية، القاهرة، 2006م.

- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت ب716هـ)، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2013م.
- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت333)، كتاب المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م.
- ابن غازي، محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي (ت919هـ)، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1988م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت505هـ)، إحياء علوم الدين، دط، دار المعرفة، بيروت، 2004م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت505هـ)، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق: حمد الكبيسي، ط1، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1971م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت395هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م.
- الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م.
- ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي المراكشي (ت، ق7هـ)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني (ت810هـ)،
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق: محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي، ط1،
الدار التونسية للنشر، 1968م.
- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت751هـ)، إعلام الموقعين
عن رب العالمين، تعليق وتخريج: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط1، دار
ابن الجوزي، السعودية، 2002م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت774هـ)، البداية
والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، القاهرة، 1997م.
- ابن الكردبوس، عبد الملك بن محمد التزوري (ت575هـ)، الاكتفاء في أخبار
الخلفاء، تحقيق: صالح بن عبد الله الغامدي، ط1، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،
المدينة، 2008م.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت273هـ)، سنن ابن ماجة،
تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، دار الرسالة العالمية، بيروت، 2009م.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي (ت647هـ)، المعجب في تلخيص أخبار
المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006م.
- مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، صحيح مسلم،
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1991م.
- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار
وعبد القادر زمامه، ط1، دار الرشاد الحديثية، الدار البيضاء، 1979م.
- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقرق،
الرباط، 2005م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت711هـ)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1994م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت213 أو 218هـ)، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990م.
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين بن عبد الله الرومي (ت626هـ)، معجم الادباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م.
- اليعسب، أبو يحيى بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني (ت575هـ)، المغرب في محاسن المغرب، دراسة وجمع وتوثيق: عبد السلام الجعماطي، ط1، دار الأمان، الرباط، 2016م.

II - المراجع:

1 - الكتب:

- الإبراهيمي، محمد بن بشير بن عمر، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- البديري، عبد العزيز، الإسلام بين العلماء والحكام، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2014م.
- بوخاتم، مولاي علي، مصطلحات النقد العربي السيماءوي، ط1، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2005م.

- سالم، عبد العزيز، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ط2، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999م.
- الصلابي، علي محمد، نفحات من التاريخ الإسلامي دولة الموحدين، ط2، دار البيارق للنشر، عمان، 1998م.
- الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
- أبو زهرة، محمد، مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1952م.
- العاكوب، عيسى علي، التفكير النقدي عند العرب، ط1، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1997م.
- عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1983م.
- عبد الحميد، صائب، علم التاريخ ومناهج المؤرخين، ط2، مركز القدير، بيروت، 2008م.
- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط4، دار الساقى، بيروت، 2001م.

2- الدوريات:

- جفال، محمود عبد الله، "منهج أحمد بن فارس في النقد اللغوي في معجم مقاييس اللغة"، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع67، مجمع اللغة العربية الأردني، جويلية 2004م، ص3-67.

- خوف، شعيب، "النقد التاريخي عند ابن حزم"، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، م1، ع2، كنوز الحكمة، جوان 2013م، ص76-80

- قائل، إلهام، "العالم والسلطان في المغرب الأوسط جدلية ولاء وبراء"، مجلة عصور جديدة، ع23 - عدد خاص-، مخبر التاريخ بجامعة وهران، أوت 2016م، ص270-287.

- نمر، بومدين هشام، "المرتزقة النصارى في بلاد المغرب الاسلامي ما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين"، مجلة عصور جديدة، م8، ع1، مخبر التاريخ بجامعة وهران، ماي 2018م، ص83-99.

3- الرسائل الجامعية:

- شايب، ياسين، الفكر السياسي الإسلامي في العصر الوسيط في كتابات الأداب السلطانية المغربية والأندلسية (خلال القرنين 5 و8هـ/11 و14م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في تخصص التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2018م.

- المدقة، عبد الرحمن توفيق محمد، وسائل محاسبة الحاكم دراسة فقهية معاصرة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفقه المقارن، كلية الشريعة والقانون، الجامعة الإسلامية، غزة، 2017م.

ثانفا - المحررات باللغة الأعمفة:

I - المرفة:

- لف تورنو، روفف، حركة الموفدفن فف المغرب فف القرنفن الثانف عشر والثالث عشر، ترجمة: أمفن الطففف، ط1، الءار العربفة للءءاب، ءونس، 1982م.

- مءموفة من المؤلففن، أءلس العلوم السفسافة dtv، ترجمة: سامف أبو فءف، ط1، المءءبة الشرففة، بفروف، 2012م.

فهرس المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة:.....	(06-01)
الفصل التمهيدي: مداخل عامة إلى النقد السياسي للسلطة الموحدية.....	(24-07)
أولاً: مصطلحات ومفاهيم نقدية وسياسة.....	08
1-النقد لغة.....	08
2-النقد اصطلاحاً.....	11
3-النقد السياسي.....	14
ثانياً: مداخل إلى الموحدين وأساليب نقدهم.....	16
1-السلطة الموحدية.....	16
2-الأساليب النقدية في المدونة التاريخية.....	21
الفصل الأول: المنابع والخلفيات النقدية	
في المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي.....	(54-25)
أولاً: المنابع النقدية.....	26
1-النقد السياسي في الثقافة العربية.....	26
2-نقد السلطة الحاكمة في الإسلام.....	30
3-النقد السياسي في الثقافة المغربية قبل الموحدية.....	35
4-النقد السياسي في الثقافة الموحدية.....	38
ثانياً: الخلفيات النقدية.....	41
1-المشارب المذهبية والفكرية.....	41

- 2-مناهج وبواعث التأليف.....45
- 3-المؤرخ والسلطة.....49
- 4-السلطة والنقد.....52

الفصل الثاني: معالم النقد السياسي

- في المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي(55-88)
- أولاً: النقد السياسي للسلطة والبلاط الموحدى.....56
- 1-نقد الدعوة التومرتية.....56
- 2-النقد السلطانى.....60
- 3-النقد الحكومى.....65
- 4-النقد العسكرى.....71
- ثانياً: نقد السياسات الموحدية.....75
- 1-نقد السياسة الدينية.....75
- 2-نقد السياسة العمرانية.....78
- 3-نقد السياسة الاجتماعية.....82
- 4-نقد السياسة الاقتصادية.....86

الفصل الثالث: نقد النقد وقضايا تاريخية

- في المدونة التاريخية الوسيطية للغرب الإسلامي(89-112)
- أولاً: أنماط وظواهر نقدية في المدونة التاريخية.....90
- 1-النقد العكسى الدفاعى.....90
- 2-النذرة في نقد السياسة الخارجية.....95
- 3-النقد العمرانى في التاريخ المدينى.....97
- 4-النقد المرينى بعد العقابى.....99

102.....ثانيا: ما وراء النقد

102.....1-النقد والزمكان

105.....2-النقد المستحق الغائب والبرودة في الدماء

109.....3-دوافع النقد وانعدامه

(118-113).....الخاتمة

(125-119).....الملاحق

(135-126).....الوراقية

136.....فهرس المحتوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ